هذا ما استوحيته من الناس

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

دار الثلوثية للنشر والتوزيع

هذا ما
استوحيته من الناس

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

ⓒ محمد ناصر العبودي ، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

هذا ما استوحيته من الناس / محمد ناصر العبودي - الرياض ، ١٤٢٩هـ

١٣٠ ص ؛ ١٤ X ٢١ سم

ردمك : ٨-٨٧٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- المقالات العربية أ- العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٢٩/٣٩٣٠

رقم الايداع: ١٤٢٩/٣٩٣٠

ردمك: ٨-٨٧٢-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

الناشر

دار الثلوثية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

تلفون : ٤٦٤٢٩٩٩ / فاكس: ٤٦٤٥٩٩٩

e.mail: tholothia@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي من عليَّ بطول العمر مع العافية في العقل والجسد حتى رأيت ما كتبته قديماً غريباً عليَّ أو كأنما هو الغريب ، والصلاة والسلام على النبي الحبيب القريب من ربه ومن كل مسلم على مر الدهور وتعاقب العصور.

أما بعد ، فان هذا الكتاب كتب في عصر الشباب ، ولم يكن المقصود من كتابته في أول الأمر أن يكون كتاباً ينشر أو يؤثر ، وإنما كان بمثابة تجربة قلم وترويض فكر ، ولذلك أقصيته عن بصري وبصيرتي شأن من يزهد بشيء كان يراه في شبابه ، ورأى أنه لا يستحق أن يبذل جهداً في تطلابه ، ولولا طبيعة فيَّ بأن لا أمزق أوراقاً قديمة ولو ظننت أنني لا أحتاجها، ولا أتلف دفاتر أو إضبارات ليست عندي بذات قيمة لكان في خبر كان ، وربما نسيت حتى إسمه مثلما فعلت طيلة أزمان.

كانت الفكرة من كتابتي هي أن أدون ما أراه أو أسمعه أو استوحيه مما أراه أو أسمعه في مذكرات يومية ، أخذت نفسي في فترة من الفترات بأن لا أخلَّ بها ، ولو كنت لا أعتقد في مجملها أنها تستحق الكتابة فضلاً عن التدوين.

وشاء الله تعالى أن استمر في كتابة تلك المذكرات عدة سنوات ، حتى تألفت منها آلاف الصفحات فيها الغث والمقبول ، وفيها ما يستحق أن ينشر ، وما يستحق أن يستر.

وقد رجعت إليها ثانية فرأيت بعضها مما يصح أن يسلك في كتاب لي قديم آخر في المأثورات الشعبية فأضفتها إليه ، وطبعته

الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة – قبل نحو عشرين سنة- بعنوان : (مأثورات شعبية).

ثم صار بعضها جزءاً من كتاب (صور ثقيلة) الذي طبع أيضاً. ثم هجرتها وتركت النظر فيها عن قصد أو غير قصد.

وقد مضت على كتابتها خمسون سنة أو تزيد ، فرجعت إليها في وقت فراغ ذهني وبدني ، ووجدتني أعود إلى زمن قد تغير منه كل شيء في زمننا الحاضر ، حتى بالنسبة إلى القراء ، فعندما كتبتها كان القراء قلة من طلبة العلم الديني في المساجد ، وقلة أقل منها من المثقفين الذين لم يتخرجوا من مدارس ، وإنما خلقوا ذوي أذواق أدبية ، حملتهم على أن يبحثوا عما يقرءونه ، وإن لم يجدوا كل ما يريدونه ، ولم تكن هناك مطابع تطبع مثل هذه الكتب المحلية. ولا كان يدور في خلدي ولا في ساحة بلدي أن مثل هذا الكلام يمكن أن يكون له مقام في نفوس القراء الكرام.

أما الآن فقد عم التعليم في بلادنا ، وتخرج من كلياتنا وجامعاتنا ألوف بل عشرات الألوف من البنين والبنات ، واتسعت دائرة المعرفة ، وزاد تشجيع الحكومة على طبع المؤلفات الوطنية ، لذلك رأيتني أسأل نفسي عما إذا كان من الرأي المصيب – بل عما إذا لم يكن من المعيب – أن أنشر هذا الكلام القديم من دون أن أكون كمن نشر ثوب الغسيل أمام الناس وإن لم يكن قد نقاه من الأدناس.

لا سيما أن الكتاب كان عنوانه الأصيل – هكذا أوحى إليَّ الناس – إلا أن أحد الأصدقاء أطلع على أسمه وإن لم يطلع على رسمه ،

فاستبشع أن يكون للناس وحي إلى الناس ، وحي يكتب ، نافراً مما قد يوحي به ذلك من معنى يطلب أو في هدف يُرْغب.

ومع عدم اقتناعي بحجته فقد رأيتني أغير أسمه وإن كان ذلك لم يغير من حقيقته فأجعل عنوانه (هذا ما استوحيته من الناس) على طول هذا العنوان أو عدم السمة الفنية فيه ، ولكنني قلت لنفسي : إن كثيراً من القراء الكرام الذين قرؤوا لي ما كتبته من الكتب أو بعضها ، وقد الفت الآن ما يزيد على مائتي كتاب ما بين صغير وكبير طبع منها ما يناهز المائة والثلاثين ، ولكل كتاب قراء ، وإن لم يكونوا كثراً لكل كتاب في كل حال.

قلت لنفسي : إن بعضهم ربما رغب في الإطلاع على كتابة لي مضى عليها نصف قرن من الزمان ، حتى ولو كانوا فعلوا ذلك مدفوعين بما قرءوه من كتابة رأوها جيده أو رأوها – على الأقل – غير رديئة ، فأحبوا أن يقارنوا بين قديم المؤلف وجديده.

وإذا لم يكن الأمر كذلك فلأقل أنه الضعف البشري الذي أملى علي أن أنشر هذا الكتاب ، وأضعه على الأعتاب ، لدى ذوي الألباب من القراء الكرام ، والله المستعان ، وعليه التكلان.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

ومع ذلك يقال المجاملة

جلس إلى جانبي أحد الثقلاء ، وقهقه في وجهي وهو يظن أنها ابتسامة تجلو عن القلب الصدى ، وضغط على يدي بشدة وهزها هزات متتاليات ، أهتز لها كل جسمي ، وهو بذلك يريني أنني أثير لديه.

هذا ما يعتقد ولم يسعني إلا أن أغتصب ابتسامة مصطنعة أزجيها إلى بصره الكليل ليرى أنني أبادله ابتساما بابتسام ، وأشفع تلك الابتسامة بكلمة أظهرتها ما بين مظهر الجد والهزل.

وقلت فيها : إنني يا أخي ضعيف عن مجاراتك ، ما شاء الله وضحكت ، قلت ذلك لكيلا يعود مرة ثانية إلى هز يدي بمثل تلك الشدة.

ولم يَنْقَض كلامي حتى أبتدأ كلامه وهو يقهقه قهقهة الرضا ويضع فمه المنتن قريباً من وجهي ، ولا أدري ما الذي وقف في طريق الكلمات في حلقه ، فزفر زفرة كاد يتحرك لها ثوبي بعد أن عمتني جميعي ، حاول وحاولت أن أسد أنفي ، ولكنه زاد مني قرباً وجعل يواصل كلامه وكتل ريقه تتناثر من فمه كما يتناثر الشرر من الكير.

ولا أدري ما الذي حمله على أن يلصق جسمه بجسمي ، والمكان فسيح ، والوقت حار وعرقه يشع رائحة خبيثة.

وكلما أبعدت منه : عن وجهه وتباعدت عن لفحات فمه وعن رذاذ ريقه ، قرب مني وكأنه لم يعرف شيئاً مما أعانيه !.

وهذه هي حاله معي ، ومع ذلك يقال : إن المجاملة واجبة وإنها محبوبة ومشروعة ، من هو الذي يقول : إن مثل هذه الحالة وإن مثل هذا الثقيل وما أكثر مثل هذه الحالة ، وما أكثر إخوان ذلك الثقيل ، ينبغي

أن تستعمل معهم المجاملة ؟ هذا الطب ينهى عنها لأن في ذلك نقلاً للأمراض من فم ذلك الثقيل العليل إلى من أُبتلي به.

وهذه النفس والروح تأمر بالبعد عنه لأنه يعرض الروح ويكدر صفاء النفس ، وغير هذا وذاك من سائر الناس والمذاهب ينهون عنه ويحذرون منه ، وأدنى مراتب الناس وأقربهم نظراً في نظر عشاق المعنويات هم الماديون وهم يحذرون من ذلك لأنه يستهلك وقتاً كبيراً ما أحوج الإنسان إلى أن يصرفه في غيره ، فهو لا يستفيد من ذلك الوقت بل على العكس من ذلك يتضرر به ولا يفيده.

لا ، لست من أنصار المجاملة التي تؤدي إلى مثل هذا ، وليست المجاملة في مثل هذا ، فالنفس واحدة لا يمكن للإنسان إذا ما أغضبها أو أمرضها أن يستغني عنها فترة يدعها تستجم وتستعيد صحتها.

وأغراض الحياة وأهدافها في الإنسان كثيرة متنوعة والإنسان محتاج إلى جهود كثيرة ومحتاج إلى توفير كل دقيقة من زمانه ليستعملها فيما ينفعه.

على أية حال أنا لم أكتب هذه الكلمة إلا لأذكر نفسي بمثل هذه الأشياء ، لأبتعد عن أمثال ذلك الثقيل الذي يأكل الوقت أكلاً ويقتل الزمان قتلاً ويمرض نفسي إمراضاً لا تبل منه إلا بعد زمن طويل

الجاذبية الشخصية

يتعجب صديقي (م) من (فلان) لأنه لا يجتمع معه ويقابله إنسان عادي أو شخصية كبيرة إلا أحبه وأكرمه وافتقده إذا غاب عنه ، وذكره إذا هو فارقه.

أما أصحابه وأصدقاؤه فهم لا يطيقون فراقه ولا يحتملون بعده ، وخصوصاً منهم ذا الحس المرهف والشعور الفياض.

ويقول صديقي (م) إنني إذا نظرت إلى ذلك الرجل لم أجد فيه من الأشياء الظاهرة ما يجعل الناس ينجذبون إليه فليس له ذلك الوجه الصبوح الذي إذا كان في الرجل أحب الناس محادثته وتكرار النظر إليه ، والنفوس مجبولة على حب الجمال وإكباره.

وليس هو بالرجل الطويل اليد ، الذي يغمر إحسانه معارفه يقرض هذا ويمنح ذاك ويساعد الآخر.

وليس هو ذلك الرجل الذي رزق من الدنيا ما رزق به التجار الكبار الذين يعظمهم الناس إن لم يكن مكافأة فاستجداء ولو لم يكن بعبارات الاستجداء.

وليس هو بالرجل من ذؤابة أسرة شريفة أو قبيلة كبيرة يعظمه الناس ويجلونه ويحترمونه أملاً في أسرته أن ترتفع به إلى مكانتها وإكباراً لمقام أبائه الذين يؤمل أن يصل إليه ، ولا تفهم من ذلك أنه من عائلة حقيرة ، لا ، ليس كذلك ، ولكنه من عائلة شريفة يشرف أبناؤها بشرفها ويعيش أفرادها في كنف اسمها.

ليس (فلان) أحد هؤلاء الذين عددتهم ، ومع ذلك فهو كما ترى رفعة وسمواً وجلالة قدر ونباهة ذكر.

قلت له : لقد أخطأت يا صاحبي في التقدير ولم تصب في الحكم ، لقد جاءك الخطأ في كلامك وحكمك من وجوه كثيرة ، لأنك زعمت أن أحداً من أولئك الأشخاص يمكنه أن يكون أهلاً لما يتمتع به ذلك (الشخص) من صفات ومميزات وينال به ما نال من مرتبة رفيعة في نفوس عارفيه ، ومكان عالٍ في عيون الذين يقابلونه ويجتمعون به ، لا يا صاحبي ، ليس الأمر كذلك وليس ما ذكرت كافياً لنيل بعض ما يتمتع به (فلان) من منزلة رفيعة ومكانة مرموقة.

إن الرجل الكريم لا يعظمه ويجله ويحترمه ويثني عليه إلا من وصل إليه كرمه إما مباشرة أو بوساطة غيره ، ولا يمكنه أن يجله ويثني عليه قبل أن يكون كريماً ، وأن من شروطه الوجدان لأن من لا يجد شيئاً إنما يبحث عن كريم يحتمي بحماه من الفقر ويلجأ إليه من الإعدام . والوجدان أو طول ذات اليد كأكثر الأشياء في الدنيا عرضة للتغير والتحول ، وعرضة للزوال والذهاب.

وهل تظن أن الناس سوف يمدحون الكريم بعد أن لا يكون كريماً ؟ لا ، إنهم لا يمدحونه لأنهم في الواقع ، ودع عنك نفاق الناس وتغنيهم بالكرم ، وبأبيات الكرم ومدائحهم ، إنهم لا يمدحون الكريم وإنما يمدحون مصالحهم التي يوفرها لهم كرم الكريم ، يمدحون بطونهم إن كانوا يبغون الطعام ، ويمدحون جيوبهم إذا كانوا يبتغون ملء الجيوب ، إنهم يمدحون جيوبهم ، ولا بأس عندهم بعد ذلك أن يذكروا بالخير من ملأ جيوبهم ومن اشبع بطونهم لكي يملأها أكثر مما ملأها ويشبع بطونهم أكثر مما أشبعها.

والأشخاص الذين يمدحون وفاءً وليس إستجداءً هم من النادر ، والنادر لا حكم له ولا يقاس عليه ، وقل قريباً من ذلك في الرجل الذي يحترم ويجل لما يؤمل فيه من العطاء والمثوبة ويبقى أن نتصور أن ذلك الأمل فيه قد انهار ، هل يقف منه معظموه المؤملون لرفده موقفاً سلبياً كما يفعلون من غيره ؟

لا ، إن جهودهم في مدحه ، وفي بناء صروح النفع الخيالية على رفده لا يمكن أن تذهب بدون أن يبكوا عليها ويؤبنوها ، ولا شك أنهم يعدون ذلك الشخص قد وأدها ولو كان وأدها القدر.

ثم إن ذلك الشخص المؤمل للنفع لا يجل ولا يعظم إلا إذا حضر ، أو حضر من يجعله كأنه قد حضر ، وفي الخلوة وفي قرار النفس لا يجازى ولا ينظر إليه إلا كما ينظر المسافر إلى السيارة التي توصل إلى الغاية التي يبتغيها ، ينظرون إليها نظرتهم إلى الوسيلة لقضاء حوائجهم فقط.

أما ذلك الرجل الذي يسمو عند الناس بنسبه ، ويشرف بأسرته فهذا ما لا أقرك عليه من أساسه ، ليس ذلك الرجل شريفاً وليس بذي المنزلة السامية وليس معظماً ، ولكن آبائه شرفاء وأهله معظمون.

وهو معظم لذلك ، ليس في قرارات النفوس ولكن في ذوائب الألسن وهو ليس عظيماً ولكنه عظيم المنبت ، وليس كل شخص عظيم المنبت عظيماً في نفسه ، وليس كل شريف الأرومة يكون شريف الهمة.

إن كل مَنْ ذكرت يا صاحبي ليسوا كصاحبك (فلان) الذي ذكرتَ من أوصافه ما ذكرت ، ونعته بما نعته به ، لأنه رجل لم يشرف

بسبب من الأسباب الخارجة عنه ، ولم يعظم لشيء ليس في نفسه ، ولكن شرف وعظم لأن الله وهبه شيئاً إذا وهبه لشخص من الأشخاص تسنم ذرى القلوب ، وملك زمام النفوس وصار شريفاً بغير سبب يعرفه غلاظ الطباع كثيفوا الشعور حتى يقولوا عنه : إنه شريف بدون سبب.

شيئاً إذا منحه الله العبد تساقطت عليه النفوس الشاعرة ، والأفئدة الذكية ، كما تتساقط قطع الحديد الصغيرة على حجر المغناطيس ، ذلك لأن ذلك الشيء هو الجاذبية الشخصية.

إن الجاذبية الشخصية هبة من الله يهبها للإنسان ، وهي هبة طبيعية لا تشتري بالنقود ، ولا تحصل بالاكتساب ، بل هي أحد أركان الشخصية القوية التي قد أراد الله لها أن تكون شخصية قوية وليس لها سبب ، ولكنها كما قلت .. هبة من الله تعالى ليس إلا.

ماذا صنعت نفسي

ماذا صنعت نفسي حتى أفعل بها ما فعلت ؟.

هل فعلت شيئاً تعاقب عليه النفس حتى أزجها في اتون صحبة أولئك الذين لا ينفرون من شيء مثل ما ينفرون من صحبة أمثالي ؟.

وماذا فعل وقتي ؟ هل زاد وقتي الآن على أوقاتي السابقة ، أو على أوقات الناس حتى أذهب أنثره نثراً وأفرط فيه تفريطاً لدى من يظن أن خير أوقاتي ما أقضيه لديه.

قد يكون محتملاً وقد أضعت وقتي في غير ما أنفقه من منتج ومفيد أن يكون إنفاقي إياه في شيء مفيد عن طريق مباشر أو غير مباشر ، ولو كانت تلك الفائدة في لا شيء وإنما في التمتع بإجازة في الوقت من الوقت ، ومما في الوقت.

ولكن من غير المحتمل ومن غير المعقول أن أضيع وقتي الحاضر فيما يعود على أوقاتي الأخرى بالضياع وفيما يبدد أفكاري وفيما ينغّص عيشي ، وفيما يكدس الأكدار على نفسي وفيما يعلمني ما لست بحاجة إلى تعلمه.

لا ينبغي أن أضيع وقتي بحجة أن غيري يضيع وقته ، أو أن غيري يستسيغ أن يضيع وقته ولا يرى في تضييع وقته إلا حفظ وقته ولا يرى في تضيع وقتي أنا بسببه إلا ما يجب عليَّ أن أشكره عليه وأحمده له.

أنا استعمل وقتي - والحمد لله- فيما ينفعني سواء أكان ذلك في منفعة ظاهرة يعدها الناس منفعة ويسمونها منفعة أم كان في شيء لا يعدونه منفعة ولا يسمونه منفعة ، ولكنني أنا أسميه منفعة وأعُدهُ منفعة ، وهو في الحقيقة منفعة !.

قد أجلس وحدي أفكر أو أجلس مع جماعة أدرس - صامتاً - وأنا أعد ذلك منفعة ولو لم يعده الناس منفعة.

قد آخذ كتاباً من المكتبة أو أسمع كلمة من المذياع فلا يعد الناس ذلك لبعض الناس منفعة وإنما يعدونه تضييعاً للوقت وقطعاً له فيما لا يضر - والوقت إذا لم تنفقه فيما ينفع أنفقته فيما يضر – وقليلٌ ذلك الوقت الذي يذهب فيما لا ينفع ولا يضر.

ولكنني أعد ذلك منفعة لأنه يترتب عليه منفعة ، فقد أرى كلمة في كتاب أو سمة في وجه ، أو أسمع كلمة من مذياع فتفتح لي تلك الكلمة أو السمة من المعاني والخواطر ما يعجبني ويطربني ولو لم يعجب الآخرين ويطربهم.

إن نفسي لم تفعل شيئاً ، وإن وقتي بريء من الذنب . ولكن الذنب ذنب الأخلاق التي يسميها الناس آداب السلوك أو ذنب واضعي آداب السلوك أو ذنبي أنا في عدم فهم آداب السلوك أو ذنب أولئك الذين ضاعت أوقاتي إلى جانبهم في عدم فهم آداب السلوك حتى كانوا يعدون من يعتذر عن مشاركتهم في تضييع الوقت قد ضيع من آداب السلوك ما لا يرضاه أرباب آداب السلوك الذين وضعوا آداب السلوك ، والذين يتبعون آداب السلوك.

أنا الملوم وأنا الذي لم أحسن التصرف في وقتي ، وليس حسن التصرف في وقتك أن تنفقه فيما ينفعك ، إذا حصلت عليه "أي على الوقت" ولكنه أيضاً في حفظ الوقت وعدم تضييعه أي في حفظه من الضياع بلا شيء ثم في حفظه من الضياع في شيء أحط من "اللاشيء" أو في شيء مثل "اللاشيء".

قول بعض العلماء من السلف ((ليست العبرة بمن هلك كيف هلك وإنما العبرة بمن نجا كيف نجا)) وهذا ما ينبغي أن أجعله دستوراً لي في حفظ الوقت فليست العبرة بأولئك الذين يضيعون أوقاتهم في لا شيء وفي شيء أضَرَّ من اللاشيء إذا كان في اللاشيء ضرر.

ولكن العبرة بأولئك الذين حفظوا أوقاتهم والذين من حسن حظي أن أكون قد عرفت بعض قدر وقتي وقيمته مثلهم لا بوحي منهم ، ولكن بوحي من نفسي.

تقول لي نفسي عندما ألح عليها في وجوب حفظ الوقت والاعتناء به : لتذكر دائماً أسماء أولئك الذين يحفظون أوقاتهم فما يقول الناس كيف ينفقون أوقاتهم أحياناً في الاجتماع مع الأصدقاء والأنس إلى الناس؟.

وأقول لها : نعم . كانوا يفعلون كذلك وأنا أحاول أن أفعل ذلك ولكن أنى لي ذلك ؟. أنى لي أن أجد الأصدقاء الذين يستحقون أن ينفق الوقت بجانبهم ؟ وأنى لي بمخالطة الناس الذين استفيد منهم ومن مخالطتهم ؟.

ألم تعلمي يا نفس أن المخالطة أقسام كثيرة ، ومنها الصحبة ، وهذا ما ليس إليه سبيل ما دمت هكذا وما دام ناسي هم ناسي وبلدي هي بلدي ومحيطي هو محيطي . ليس هناك الكثير ممن يصلح للمعاشرة كما قلت وكما تفهمين.

وقسم من المخالطة يسميه الناس المخالطة ، وهو الاجتماع لا الملازمة والإلمام على الدوام بالناس وبالأشخاص.

وهذا هو إحدى زوايا المدرسة التي منها يدرس الناس ومنها يطلع على عاداتهم وطبائعهم ، وهذا هو ما أريده وهذا هو ما افتقدته حينما ضاع عليَّ وقتي في غير ما فائدة ولا منفعة.

إنني لا أجد الأصدقاء الذين أرضى عنهم ، ولكني أجد أصدقاء أرضى عنهم أكثر مما أرضى عن غيرهم وأجد فيهم من الأخلاق والمزايا ما لا أجده في غيرهم.

وإنني أسميهم أصدقاء لأنني لم أجد غيرهم أحسن منهم ولكن ليس من المقبول أن أنفق الوقت معهم جميعه في غير جدوى.

وبطريقة أولى ليس لي أن أضيعه مع غيرهم ممن ليسوا أصدقاء ولكنهم معارف من فرض الظروف ومن ابتلاء الزمان ، ومن نتائج الحاجات و الملابسات.

إنني لا أعرف حصتي من الساعات في هذا الكون الذي يقيس أعمار الأحياء كما يقيس أعمار أعمال الأحياء بالساعات التي تتطور فتصبح أياماً وشهوراً وسنوات . وقد تكون تلك الحصة وشيكة النفاد ، فهل يصح في العقل أن أبددها عبثاً وأنفقها فيما يضر ؟.

إن الكون يتطور وإن الإنسان نفسه يتطور إن طوعاً أو كرهاً وإنه لمن الخطأ أن يتطور الإنسان إلى ما لا يحمده أو أن يحاول أن يقف سير الخليقة في نفسه فلا يتطور.

يجب علي كما يجب على كل إنسان أن يحاول أن يتطور بنفسه مع الخليقة فيما يحبه ، وإلا فإنه سوف يتطور فيما لا يحب.

إن الساعات المعدودة المكتوبة لي في سجل الحياة في هذه الدنيا لهي درجات في سلم الصعود إلى الموت ، وإن من الخطأ أن يصعد الإنسان

في ذلك السلم درجة واحدة فضلاً عن درجات بدون أن يقف فيحاسب نفسه ماذا أفاد من مقامه في تلك الدرجة ؟ ماذا أفاد ولو فائدة سلبية بان دفع عن نفسه أو أزال ما لا يفيده.

أن القدماء يقولون إن (الوقت من ذهب) ولكن الزمن قد تطور ونظرية الناس ونظرتهم إلى الذهب قد تطورت ، فلم يعودوا يرون أن الذهب أهل لكي يضرب به المثل لأشرف شيء في الوجود.

لذلك الشيء السحري الذي يتحول بصنع بعض الناس إلى أشرف من الذهب : إلى ما لا مثيل له ، ويتحول بصنع بعض الناس إلى شيء لا مثيل له في السفل : إلى أضر الأشياء.

وقد يكون الوقت لفلان هو سبب خلوده أو خلود أمته وقد يكون لآخر سبب سقوطه وتخليده في سجل الساقطين أو الخائبين فالوقت هو المعمل الذي يمتحن به الناس فيدخلونه جميعاً فمنهم من يشتغل ويجد ويجتهد فيخرج ظافراً يجني ويجني غيره من بني جنسه ثمار عمله ، ومنهم من يجد ويشتغل ولكن بغير ما يفيده ، وعلى غير هدى فيخرج يجني وربما يجني معه غيره مغبة عمله خسراناً مبينا.

ومنهم من يتكاسل ويتوانى فيفوته الفوز ، ويتعداه النجاح فيصبح شيئاً غير مذكور.

والوقت ليس مرور الزمن فحسب ، ليس هو طلوع الشمس وغروبها ودخول شهر وانقضاؤه ، ولكن الوقت هو العمل في الزمن ، هو العمل في الساعة والدقيقة واليوم والأسبوع والشهر والسنة.

إن الزمن صفحة بيضاء . وإن الوقت أو تدبير الوقت هو الكتابة في تلك الصفحة ، فقد يكتب الإنسان شيئاً مفيداً ، وقد يكتب شيئاً

ضاراً ، وقد يكتب شيئاً ثم تطوى تلك الصفحة لتحل صفحة أخرى محلها بيضاء ناصعة البياض فيكتب فيها من يكتب ويحجم من يحجم.

والمسجونون والمجرمون الذين يكتبون في تلك الصفحات البيض كلمات سوداء ، إنما يسجنون ليمنعوا لا من مرور الزمن فما ذلك بمستطاع ، ولكن من الكتابة على تلك الصفحات البيض ، ولذلك فأنا أقول : ماذا صنعت نفسي حتى أسجنها ، حتى أجعلها لا تكتب شيئاً في صفحة الزمن البيضاء ؟!!!

الثقلاء

قال صديقي : لم لا تحضر إلى مجلس فلان ؟..

قلت : أوَ خافٍ عليك أنه مأهول بالثقلاء ؟..

قال : وما شأنك بهم ؟.

قلت : شأن من يرى ما يكره وليس مكرهاً على ما يراه.

قال : وأين المجاملة ؟..

قلت : إن المجاملة فيما يعرض لا فيما يُستدامُ.

قال : وما تفسير ذلك ؟.

قلت : إن المجاملة كالعلاج من الداء ، وإن عدم الحضور وقاية ((وإن درهم وقاية خير من قنطار علاج)) كما يقول الأقدمون.

قال : ولكن الحياة مملوءة بأمثال من تسميهم ((الثقلاء)) وإن المجاملة تيسر لك الطرق إلى التمرن على مخالطة أولئك ، ومن هناك تكسبك المناعة ضدهم . ثم تصبح لا تحس بثقلهم كما تحس به الآن.

قلت : ولكن الحياة كما قلت لا تخلو من أولئك الثقلاء ، وهي لم تخل أبداً منهم ، ولذلك فقد جربت ما ذكرت فلم يتيسر لي ما وصفت.

قال : أو ليس هؤلاء الثقلاء مصيبة كمصائب الحياة وما أكثر مصائب الحياة التي يقدم عليها الإنسان راضياً ولكن يدفعه إليها خوفه من مصيبة أعظم منها.

قلت : بلى إنهم مصيبة كما ذكرت ، ولكنهم مصيبة لا كالمصائب لأنهم مصيبة تصيب الإنسان في نفسه وشعوره ، وإن أعظم المصائب ما كان كذلك وليس أكثر المصائب كذلك.

قال : فلماذا إذاً وضعت المجاملة ؟.

قلت : لحين لا يكون علاج غير المجاملة.

ليست المجاملة أن تصاحب الثقلاء ولا تجامل نفسك بترك صحبتهم ، وأنت تعرف أنهم ثقلاء وإن الثقل في طبيعتهم وجد ، وفي تكوينهم عُجِنَ.

أولى بك إذا كان فيك فضل من القدرة على ضبط النفس ومجابهة الأخطار والنكبات ، أن لا تضيعه في مجاملة الثقلاء الذين لا يرون انك تجاملهم بل لعلهم يدلون عليك بحق مصاحبتهم والاغتراف من حياض أخلاقهم الصافية ، كما يزعمون.

يا صديقي

كنتُ صديقك وكنتَ صديقي وكنا صديقين

ولا أدري ما الذي جعلنا صديقين غير أننا تعارفنا فصرنا صديقين ، وكنا صديقين فأخلصنا للصداقة كما يخلص أصدق صديقين.

وكنا نحافظ على صداقتنا كما يحافظ كل صديقين ، ولم نكن نظن أنه سيأتي يوم نصبح فيه غير صديقين ، بل إننا ننفي ذلك ، لأنه في نظرنا يقدح في أننا سنظل صديقين.

كنتُ بعيداً عنك كما كنتَ بعيداً عني في العمل ، وكنا نتمنى لو كان كل منا قريباً للآخر في عمله ، لكي تزيد صداقتنا توطيداً ولكي نشرب كأسها رائقاً مترعاً كما يفعل كل صديقين صادقين.

وما أسرع ما استجاب القدر لأمانينا ، وما أسرع ما كنا في العمل من بعضنا قريبين.

ومع العمل أقبلت المصالح فتلاقت عند نقطة فاشتبكت ، ورحت تحاول أن تستغل صداقتك لي فيما يقوي نفوذك ، ويزيد من سلطانك ، وتحاول أن توهمني بأن هذا ما يجوز لكل صديقين.

ومصالحك تصطدم بمصالحي ، وأنت تحاول أن يكون لك كلا الاثنين.

ولم أكن مثلك ، ولم يدر في خلدي أن آخذ كلتا المصالحتين.

ورحت أرجوك . وأتوسل إليك ، بحقوق الصداقة ، أن تذكر الصداقة ، نعم ، إننا كنا فيما مضى صديقين.

ولكنك قطعت حبل الصداقة ، ومزَّقْتَ إهابها على رغم زعمك أننا لا نزال كما كنا صديقين.

وضاعت صداقتنا ، ورحت أحاول أن أحاول أن أخذ من بين أنيابك ما تبقى مني من فتات مصالحي ، التي التهمتها على مائدة الصداقة حينما كنا صديقين.

كنت آخذها كما يأخذ المسلوب من السالب ، ورحت تحاول الإطباق عليها فما استعملنا أسلوب الاثنين.

ونجحتُ أنا وأخفقتَ أنت ، فرحت بعد ذلك تذكرني بأننا يجب أن نكون صديقين.

لا يا صاحبي ، لسنا صديقين.

ولكن ماذا يضير ؟.

لنقل إننا صديقان ، ويجب أن نكون صديقين.

ولكن حذار من أن تكرر غزواتك ، وتستكين لنزواتك ، فتلتهمني مرة ثانية : تلتهمني مرتين.

إننا سوف نكون خصمين متقاتلين.

وإن زعمت أننا لا نزال صديقين.

نعم لا يجتني من الشوك العنب

تقول لي يا صاحبي : إن من تسميهم أصدقاءك تظنهم مخلصين لك ، لأنهم كانوا يظهرون لك ذلك.

وكنت تصدقهم في ذلك ، ولا تشك - فيما تقول – ولا في صداقتهم ، كنت تظن ذلك ، وأنت في وظيفتك كنت تظن ذلك ، وأنت أنت الرئيس عليهم الذي ينفذ ما يقول ، ويقول ما يريد ، وهم صادقُوكَ فيما تظن ، لا لأنك كذلك ، ولكنهم صادقوك لأنك صديقهم وكفى . هكذا تقول.

ثم تقول : أما الآن وبعد أن نزلت من حالق ، وصرت على الأرض بعد أن كنت في السماء نزلت إلى حالتك الطبيعية ، إلى منزلتك الأولى ، من الأرض ، بين الناس ، أما الآن فإن أولئك الأصدقاء الذين صادقوك لأجل الصداقة وحدها حينما كنت في أوج مجدك ، وقمة عزك ، قد تغيروا عليك ، وخانوك كما تعبر ، فقلبوا لك ظهر المجن ، وتركوك بلا صديق.

ثم تنحى بعد ذلك باللائمة عليهم ، وعلى الإنسان ، بل وعلى الزمان الذي لا يؤدب أبناءه عن فعل ما لا يجمل فعله ، كفعل أولئك الأصدقاء الذين ليسوا صادقين في صداقتهم.

إنك الآن تقع بالذم فيهم وتنحي باللائمة عليهم ، وتندب معروفك عندهم.

ولكن مهلاً يا صاحبي ، لا تخادع من يعرف من أمرك وأمر أصدقائك ما لا تعرفه أنت وهم ، مجتمعين ، لأنه يعرف عنك ، عن

منزلتك لدى أصدقائك ، أكثر مما تعرفه أنت ويعرف عن أصدقائك : عن منزلتهم في نفسك أكثر مما يعرفون هم.

أولئك الأصدقاء - يا صاحبي – الذين زعمت أنهم نقضوا عهود الصداقة ، وخانوا مواثيقها ليسوا كما ذكرت.

إنهم لم ينقضوا عهود الصداقة ، ولم يخونوا مواثيقها ، لأنهم لم يصادقوك قط ، نعم ، إنهم لم يصادقوك قط ، وإنما صادقوا وظيفتك ، وهم صادقوا وظيفتك لا طمعاً فيك وفي وظيفتك ، وإنما هرباً من شَرِّكَ في وظيفتك ، اسمح لي أن أقول : من شرك ، فأنت شرير في وظيفتك ، أنت قد جعلت من نفوذك في وظيفتك ، جسراً تمشي عليه إلى مصالحك ، أنت جعلته جسراً ولكنه مقام من أشلاء أولئك المساكين ، الذين لا يملكون شيئاً لدفع ما ترميهم به من الأرزاء التي لا ينفذ بصرك إليها ، ولا تصل بصيرتك أو لا تنفذ عين بصيرتك إلى حقيقتها.

ولا يملكون دفعاً لذلك ، إلا أن يتزلفوا إليك ، لا صادقين ولا يدعون أنهم صادقون ولكن مدارين مدافعين.

نعم ، إنهم مدارون وليسوا بمصادقين ولكنك أنت لكثافة حسك ظننتهم كذلك . وليت ذلك نَفَع في دفع بلائك ، وخفف من غلوائك ، ولكنه كان حافزاً لك على مواصلة ما تسميه واجباً من واجبات الصداقة ، وسبباً من أسباب رفع الكلفة ، وهم يتلقون ذلك بصدر لا رحب ولكن مرحب ، ويظهرون مجاملتك خوفاً منك وحذراً من إزدياد أذاك.

أنسيت ما فعلت بفلان وفلان ؟ ثم ما لقى فلان وفلان ؟ لا يكفى أن تقول إن غيري يعملون مع مرؤوسيهم مثل ما أعمل مع هؤلاء وأكثر من ذلك.

إنك لم تفعل بهم ما يحبب صداقتك إليهم ، وهذا وحده ما يكفي لكيلا تزعم أنهم صادقوك لغير شيء إلا للصداقة ، وأنهم صادقون فيما يقولون.

نعم ، لا يجتني من الشوك العنب وإنه لا يجتني من تجنيك على هؤلاء الذين زعمتهم أصدقاء تتمروا لصداقتك ، وتتكروا لها لا يجتني منها صداقتهم الصادقة ، ولا مودتهم الأكيدة.

ألم تسمع ما قاله بعض فصحاء العرب في رجل سريّ قد يكون فيك منه شبه ، وقد يكون بينكما في طباعكما تشاكل ، قال : إنه ليس له صديق في السر ، وليس له عدو في العلانية.

نعم ، إنك كذلك ، ليس لك صديق في السر ، وفي باطن الأمر وحقيقة الحال ، ولكن ليس لك عدو لأن الناس الذين لك عليهم سلطان الوظيفة ، ونفوذ الأمر ، يخشون نزقك ويخافون ما عرفوا من خرقك وتسرعك.

إنك مثله ، ولكن في زمن أيامك البيض لك ، السود لغيرك ، في زمان دولتك ، في أوان سلطانك.

أما الآن فقد برز العدو الكامن إلى عالم الظاهر ، وتنمر الصديق المزعوم الذي ليس له وجود إلا في مخيلتك.

أفلا يحق لي أن أكرر أمامك تلك الحكمة القائلة (لا يجتنى من الشوك العنب) ؟!.

خداع المظاهر

يعجبني الرجل في وظيفته ، ويكبر في عيني في ظاهره ويعظم في نفسي إذا ما أحتل صدور المجالس وتقدم مواكب الناس ، وانحنى له الجميع وتميز على غيره من رجال المجتمع لدى المجتمع ، ولكن !!!

ولكن تأبى الصدف إلا أن تكشف عن شخصية أخرى لذلك الرجل غير تلك الشخصية الظاهرة له التي أعرفه ويعرفه بها الناس ، تأبى الصدف إلا أن تجمعني به في غير وظيفته بعد أن تجرد من ذلك اللباس الذي خلعه عليه الناس أو خلعته عليه الوظيفة ، واقره عليه الناس فإذا هو رجل (عادي) لا يختلف عن أحد من أولئك الرجال الذين كانوا يعظمونه ويجلونه في ظاهره إلا بما لبس من ثياب زور ، وتسربل به من سرابيل كاذبة.

تجمعني الصدف بذلك الرجل فلا أكاد أصدق بأنه هو ذلك الشخص الذي أعرفه ويعرفه الناس بصورة أخرى تختلف كل الاختلاف عن صورته الحقيقية.

يا لله ، يا للعجب ، هل تستطيع المظاهر أن تحيل الحقيقة خيالاً والخيال حقيقة ؟.

يا هل ترى هل بلغ الناس وأنا منهم من الغفلة والبله مبلغاً جعلهم يعتقدون فيه اعتقاداً يناقض الحقيقة تمام المناقضة، ويجانف الحق كل المجانفة ؟.

هل بلغت أفكارهم من السذاجة ذلك الحد الذي قلب حقيقة الرجل إلى حقيقة أخرى أو إلى خيال جعلته أفكارهم حقيقة ؟.

ثم أحمد الله في سري على أن وفقني للوقوف على حقيقة ذلك الرجل ، وجعلني لا أغتر بعد اليوم بظاهره ، ولا أخدّع بثوبه البراق ومظهره الخلاب ، ثم أخرج من عنده موطنا نفسي على ذلك ومرة أخرى أقول ولكن !!!

عندما أشاهده في وظيفته وقد تسربل بذلك السربال الذي خلعه عليه الناس ، والذي يستر حقيقة نفسه ويخفي أمره إذا بي على الرغم مني أشارك غيري في احترامه ولا يسعني إلا أن أكبره وأعظمه أو أقر بعظمته حتى أكاد أشك في أنني قد وقفت على حقيقته من قبل ، ثم اقف متحيراً من ذلك أسائل نفسي ، هل تستطيع المظاهر أن تخدعني إلى هذا الحد ؟.

ولا يزال هذا السؤال في نفسي قلقاً لا يجد له جواباً حتى أتذكر أنني أختلف في عملي هذا عن سائر الناس في انخداعهم بالمظاهر ، ذلك لأنهم أي الناس هم الذين يخلعون ثوب الزور على ذلك الرجل ثم يعودون مرة ثانية فيوهمون أنفسهم بأنه ثوب أصيل غير مختلق.

إن الناس يتساوون في صفاتهم البشرية الجوهرية إلى حد بعيد ولا يشذ من ذلك إلا العباقرة والمجانين.

إنهم يتساوون في تلك الصفات ويختلفون فيها ، كمية وكيفية ذلك الاختلاف الذي يخيل للبعض أن لا صلة بين بعضها والبعض الآخر ، وأن تلك المظاهر التي يظهر فيه شخص عادي في مظهر غير عادي إن هي إلا مظاهر وهمية خلعها عليه الناس ثم عادوا فتوهموها حقيقة.

قد يكون الشخص (عادياً) في أكثر نواحي شخصيته ولكنه رجل بارز في ناحية واحدة أو نواحٍ قليلة منها ، ولكن الناس يلبسون

شخصيته رداء التعظيم سواء من نواحيها العادي منها والبارز ، ويصدرون عن أفعاله العادية كما يصدرون عن أفعاله في ناحية شخصيته التي برز فيها.

وهذا ما يفسر لنا سر صدور أعمال وأقوال معتادة جداً من أشخاص بارزين ، وهذا ما يفسر لنا أيضاً خيبة الأمل التي نحسها عندما نقف على شخصية شخص يعد بارزاً في المجتمع.

وهذا ما يحار فيه كثير من الناس عندما يقفون على أعمال وأقوال متناقضة في قيمتها وهي صادرة عن شخص واحد.

وكما أننا نجد ذلك الشخص الذي وُهب مظهراً خداعاً وهو لا يستحق غير جزء يسير مما البسه الناس ، فإننا نجد كذلك رجلاً معتاداً في نظر المجتمع ، ولكنه بارز في ناحية من نواحي شخصيته وهي ناحية لم تساعده ظروفه على استغلالها وإطلاع الناس على شخصيته من ناحيتها.

وبعد ، فإذا كان الناس قد قالوا قديماً (إن الألفة رفع الكلفة) فإن تلك الألفة التي يجب معها رفع الكلفة لضريبة ثقيلة.

تلك هي ضريبة عدم الاحترام بسبب الوقوف على شخصية ذلك الرجل الذي يعده الناس عظيماً ، وإن أولى بالرجل ذي الشخصية الضعيفة التي لا تمت إلى العظمة إلا بسبب ضعيف قدر له أن يضفي على جميع شخصيته تلك الظلال (العظمية) الوهمية أن لا يظهر على حقيقة شخصيته أحداً لأنه سيكتشف حينئذ زيف تلك العظمة ووهمية تلك الظلال (العظمية).

أما ذلك الرجل العبقري العظيم الذي قد رزق العظمة في أكثر نواحي شخصيته فليكن مطمئناً فليس على رصيده من التعظيم أي خوف من الهبوط ، إذا ما أطلع الرجال العظماء أو من يسميهم الناس عظماء على حقيقة شخصيته.

إن الجهل بالشخص معناه الاحترام له احتراماً موقوفاً يشبه العقل الذي إن زاد أفضى إلى الجنون ، وإن نقص أفضى إلى الجنون ، احتراماً موقوفاً لأنه بني على الجهل ، وعند العلم سوف يحكم صاحبه بموجبه.

وإن أولى لك ألا يعرف الناس سريرتك إذا ما أردت أن يعظموك ، ذلك لأنهم إذا ما عرفوا سريرتك سوف يكتشفون أنك إنسان لا تختلف عنهم إلا في تلك الظلال الوهمية التي بثها حولك المجتمع.

وحذار ثم حذار ، من أولئك الذين لا يحسنون تقدير تلك الناحية من نواحي شخصيتك التي منحك المجتمع العظمة أو البروز بواسطتها لأنك تصبح عندهم مجرداً من مزيتك الوحيدة أو صفتك البارزة الوحيدة.

إن أكثر المظاهر هي مظاهر خداعة تخفي تحتها ما يناقضها وينافيها وهي بذلك خيال يحسبه الناس حقيقة ، أو هي حقيقة خيالية إن صح هذا التعبير ولدها الخيال.

ولكن أكثر الدنيا كذلك أكثر شؤون الدنيا وأحوال الحياة كذلك ، مظاهر خيالية وضعها الناس ثم حسبوها حقيقة فاعتقدوها كذلك.

ولو ذهبنا نعد من هذه الأخيرة شيئاً ، أو حتى نذكر منها أمثلة لأفضى بنا ذلك إلى مالا حد له من الحدود ولا بطلنا كثيراً من مراسم حياتنا الخيالية ، التي رسخ في أنفسنا أنها حقيقة ، واعتقدنا ذلك

مدفوعين بنقله من الأولين أولاً ، ثم بأفكارنا نحن عندما أستقلينا بالتفكير.

أصدقاء الكلام

هناك من بين الأصدقاء أصدقاء يسمون أنفسهم أصدقاء ، ويسميهم الناس أصدقاء ، كما سميناهم نحن في معرض التعريف بهم كذلك ، هؤلاء الأصدقاء رقيقو اللسان ، لطيفو المعاشرة ، لينو الجانب ، يخلعون عليك من النعوت المحببة إلى نفسك ما لا تخلع أنت عليها إذا ما خلوت بها ، ولا بعضاً من تلك النعوت.

وهم أصدقاء صادقون في صداقتهم ، ولكنها الصداقة الكلامية التي لا تزيد على الكلام ، ولا تتعداه إلى غيره من فنون الصداقة.

فهم لا يعظمونك بألسنتهم ، ويثنون عليك إلا وهم صادقون في ذلك ، ليسوا هم كبعض أدعياء الصداقة الثعلبية الذين يقولون ما لا يعتقدون ، ويظهرون غير ما يضمرون ، وينصبون كلمات الصداقة والمحبة ، وعبارات الود ، وفنون الإنبساط ، شباكاً ليصيدوا بها بعض الطيبي القلوب والمغفلين.

لا ، إن هؤلاء الأصدقاء الذين ينبغي أن نسميهم (أصدقاء الكلام) صادقون فيما يقولون ويعتقدون ، ولا يريدون بصديقهم سوءاً بل هم يحبون له الخير ويتمنون له التمنيات الطيبة ، ولكن ذلك فحسب ، إنهم يتمنون - صادقين - لصديقهم الخير ، ويحبون له ما يحبون لأنفسهم ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً لكي يناله ذلك الخير ، ولا يبذلون مساعدة لصديق حتى ولا ما يأتي منها -أي المساعدة - بطريق الكلام فقط ، فهم لا يفعلونه لأنه يستدعي منهم عملاً ، وهم يسمون الكلام

الذي يترتب عليه عملٌ عملاً وهذا ما ليس من سجيتهم ولا مما يدخل في إطار صداقتهم.

إنهم إذا ما لقيتهم أظهروا لك البشر ، ولقوك بالترحاب ، وهم صادقون في ترحابهم ، ولكن لا يزيدون على ذلك ، وقد تحتاج أنت إلى قليل من ثنائهم الذي أمطروك به وأنت تخاطبهم ، تحتاجه عند شخص لا يعرفك ، أو عند كبير يؤثر فيه مثل ذلك الكلام ولكنهم لا يجودون بشيء من ذلك.

وكما تحتاج إلى قليل من الصداقة الفعلية تحتاج إلى شيء غير القول مما يحتاجه بنو آدم ، فتسألهم أو تعرض عندهم به ولكنهم لا يجودون بشيء من ذلك.

الواقع أن هؤلاء الأصدقاء ولنقل الصادقين ينبغي أن يمحوا من قائمة الصداقة لأن ضررهم أكبر من منفعتهم.

إن ضررهم كثير ، منه أنهم بصنيعهم ذلك : بكيل النعوت الطيبة وانتقاء الكلمات المعسولة وتعظيم صديقهم بالكلام ، إنما يغذون في ذلك الشخص خصلة الكبرياء في نفسه ، وإنما يوهمونه بأنه يمكن أن يعتمد عليهم قبل أن يبلوهم ، ولكنه عندما يحتاج إليهم يخيب ظنه فيهم ، ولعله أن يورث ذلك فيه بغض الوجه المنبسط واللسان الرقيق والكلمات المعسولة عموماً ، لأن أولئك الأصدقاء قد كانوا كذلك ثم لم يكن وراء ذلك شيء.

ومنه أن الشخص قد يكون صديقاً كريماً ، صديقاً مطلقاً غير مقيد صديقاً بالفعل والقول ، فلا يألو جهداً بمساعدة أولئك ، أو ببذل ما يراه صالحاً في ذلك ، وربما ضر نفسه لينفعهم مؤملاً أن ذلك

لديهم لا يضيع لأنهم أصدقاء كما هو صديق ، يمكن أن يضروا أنفسهم فينفعوه إذا ما احتاج إليهم كما ضر نفسه ونفعهم ، ولكن يسفر ليلهم عن غير صباح.

على أنهم ككل شيء في الوجود لا يمكن أن يكونوا ضرراً محضاً لا منفعة فيه ، فهم فيهم نفع بل فيهم النفع الكبير لبعض الأشخاص ، فقد يكون الشخص شخصاً صغير الهمة ، ضعيف الإرادة ، سيء الظن بنفسه ، قد أصيب بمركب نقص فهو في حاجة لكي يكون رجلاً عادياً أو أكبر من الرجل العادي ، إلى من يبعث الثقة في نفسه ، يوحي إليه من طرف خفي انه ليس رجلاً ضعيفاً ولا حقيراً ولا قاصراً عن مجاراة أترابه وزملائه ، وأنه قد ظلم نفسه باعتقاده أنه كذلك ، وأنه هو نفسه فقط الذي يظن نفسه كذلك ، أما غيره من الناس فهم لا يوافقونه على تصغير نفسه ، ولا يرونها كما يراها.

قد يكون الشخص كذلك فينفعه أولئك الأصدقاء الكلاميون ابلغ منفعة لأنه بحاجة إلى من ينفعه بذلك ، قد يرى تعظيمهم له وإكبارهم لقدره ، فيبعث ذلك في نفسه تعظيم نفسه وإكبارها ، وبذلك تستقيم نظراته إلى نفسه ، وتنحل عقدة مركب النقص المتأصلة في نفسه فيكونون كمن أنتشله من وهدة ، وأخذ بَضَبُعِهِ إلى ذروة.

وبذلك قد يساوي (أصدقاء الكلام) غيرهم من الأصدقاء الآخرين ولو كان بدون أن يشعروا به ، أو أن يلقوا له بالا ولكن مع ذلك يجب أن نعرف دائماً أصدقاء الكلام من بين أصدقائنا ، فلا نخلطهم بغيرهم ، ولا نسويهم بسواهم.

الجبناء الأربعة

قلت لصاحبنا الرجل الكبير : أما كان أولى بك يا صاحبي وأنت رجل مفكر كبير أن تأخذ قومك بالكياسة ، وأن تتخذ في منازعاتك معهم شيئاً من السياسة.

فقال : الله ، الله ،كأنك يا صاحبي لا تعرفهم ، كأنك لا تعرف أنهم جهال سذج.

فقلت : أنا أعرف كل ذلك ، أنا أعرف عنهم كما تعرف عنهم أنت ، ولكنني أقول إنك لو أخذتهم بالرفق ، لكان من الممكن أن يكونوا في يوم ما معك ، وأن تستفيد من الرفق ما لا تستفيد من العنف.

إنني لا أقول : يجب عليك أن ترفق بهم لصالحهم أنفسهم ، مع أنه ينبغي لي أن أقول ذلك ، لأنهم أناس جهال ، والذنب ذنب المجتمع الذي جعلهم من كبرائه ، والمتكلمين باسمه ، ولكن أقول : يجب أن ترفق بهم حتى تستطيع أن تؤثر فيهم ، يجب أن ترفق بهم لصالحك أنت لا لصالحهم.

فقال : نعم ، إنك تتخيل ذلك ولكنهم ليسوا يخالفونني لأن فكرتي غير فكرتهم.

لا ، ولكنهم يخالفونني يريدون إبعادي عن مكانتي الرفيعة على كل حال ، لقد تأكدت من ذلك ، ولقد ذكرت قصة الجبناء الأربعة ، هل تحب أن أقصها عليك ؟..

فقلت : أجل ، إنني أحب ذلك.

فقال : كان هناك أربعة من الجبناء وكلنا نعرف الجبناء ونعرف تفسير الجبن وتأثيره ، فقال أحد الناس لهم : ألبثوا هنا في زاوية

هذا البيت حتى آتي بسيف فأقتلكم ، واعلموا أن من غادر منكم هذه الزاوية قتلته ، بل من تحرك من مكانه قتلته.

وذهب وتركهم ، فقال أحدهم وكان لا يخلو من شجاعة أو من عقل ، قال : ما ترون أيها الأخوان ؟ هل نسكت على هذا ؟ هل يقتلنا ونحن نرى ولا أحد يتكلم ؟

فأسرعوا يهمسون في أذنه بجبن وخوف ، أسكت ، اسكت ، إننا نخاف أن يكون يستمع لنا الآن ونحن نتناجى.

فأجابهم ذلك القائل : وماذا يحدث لو سمعكم ؟ إنه لا يزيد على أن يقتلكم ، وانتم الآن في انتظار القتل ، والرأي عندي أن تحملوا عليه الآن وتقاتلوه ، فإن قتل منكم واحداً بقى ثلاثة ، وإن قتل أثنين بقى اثنان وإن قتل ثلاثة بقي واحد ، وذلك على كل حال أهون من كونه يقتلنا جميعاً.

فوافقوه على ذلك ، ولحقوا ذلك الرجل ، وحملوا عليه فقتلوه ولم يقتل منهم أحداً.

ثم قال ذلك الرجل الكبير : إن مثل هؤلاء الجبناء الأربعة مثلي وأولئك القوم تماما ، إنهم لا بد أن يحملوا عليَّ ويسقطوني ، سواء أسكت أم تكلمت فرأيت أن أتكلم ، وذلك ما عتبت به عليَّ سامحك الله.

فقلت : وأنت سامحك الله !.

الكمال لله

بعض الناس أناس ساخطون على كل شيء ، ساخطون على الناس وساخطون على القدر ، الذي لم يصلح الناس ، ولم يجعل الناس كما يريدونه فتراهم لمناسبة ولغير مناسبة يطلقون ألسنتهم في الناس يتكلمون فيهم ، ولا يرضيهم أحد من أهل الدنيا.

وهم كذلك يقيسون ما جهلوا من حال الناس على ما عرفوا فتراهم يخاطبونك مخاطبة اليائس من جميع الناس فتقول لهم : إنكم لم تجربوا الناس جميعهم ، ولعل من جربتموهم منهم أناس ليسوا كغيرهم من الناس.

لعل فيمن لم تجربوا من الناس ما تفقدون فيمن جربتموهم فيجيبونك بأنهم قد بلوا كل الناس وأنهم ذاقوا حلوهم ومرهم وخبروهم ودرسوا طبائعهم ، وتكون نتيجة قولك لهم وقولهم لك أنهم يائسون من الناس ، وأن الناس ليس فيهم من يحفظ العهد ، أو يرعى الود ، أو يصلح للصداقة.

وقد تكون أنت مقرباً لديهم ، قد تكون كذلك لشيء في نفسك أو لشيء خارجي ربما كان سببه في بعض الأحيان يأسهم من الناس ، قد تكون كذلك فتسألهم أو تسأل أحدهم بعد أن تنفذ إلى سريرته وبعد أن يوضح لك أمره تسأله مثلاً عن أصدقائه ومعارفه الذين صادقهم وعرفهم ، قد تسأله عنهم واحداً واحداً تريد أن تعرف بذلك السبب الذي حداه على ما حداه إليه ، ولماذا يأس من الناس ؟.

فيجيبك بأن يتطلب عيباً أو عيوباً في ذلك الصديق وأن يذكر لك خطأ أو أخطاء قد ارتكبها ذلك الصديق ، إما ضد صديق أو ضد

نفسه بأن تكون صفاته ليست صفات الصديق الذي ينشده ذلك الشخص اليائس من الناس.

وتترك ذلك الصديق إلى صديق له آخر فيذكر لك كذلك عيباً أو عيوباً فيه ثم تمر وتمر بجميع أصدقائه ومعارفه فيقول إنهم جميعاً قد يئس منهم ، لأن فيهم عيباً أو عيوباً أو لأنهم ارتكبوا خطأ أو أخطاء ، فتعود مرة ثانية فتسأله لماذا ييئس منهم ؟ فيجيبك محتداً بأنهم كما ترى قد أخطئوا ، أو لأنهم كما ترى فيهم عيوب.

إنه يقول ذلك لجهله بالطبيعة البشرية ، إنه يقول ذلك كأنه قد ورد في بعض الكتب أو كأنه قد وجد في الحياة أوفى الناس ، ذلك الشخص الكامل الخالي من العيوب ، لأنه لا يعلم أنه لو وجد مثل ذلك الشخص لطار مع الملائكة ، ولما استطاع أن يعيش مع الناس.

ولو فكر ذلك الشخص المصاب بداء اليأس من الناس ، لو فكر في نفسه لوجد نفسه مشحوناً بالعيوب ، ولوجده قد أخطأ أخطاءً قد تهون بجانبها أخطاء أصدقائه ومعارفه مجتمعة.

ذلك لأنه يعرف من نفسه وعن نفسه أضعاف أضعاف ما يعرفه غيره عنه ، ولو أنه أطلع على كل عيوب أولئك الأصدقاء والمعارف ، فإنه لا بد أن لا يستسيغ ذكرهم ، ولا يستطيع أن يصبر على رؤيتهم من بعيد ، ولكن ما يرى من عيوب الإنسان وما يعرف من أخطائه قليل من كثير مما يخفى ، ولا يعلمه إلا ذلك الإنسان نفسه ، وأكثر من ذلك مما لا يعرفه إلا ربه.

ألم يعلم ذلك الشخص اليائس من الناس أنه لو وجد ناس من الناس مبرئون من العيوب ، معصومون من الأخطاء ، مطهرون من

الأخلاق الوضيعة ، لما استطاعوا أن يعيشوا مع الناس إلا إذا أصبح الناس كلهم مثلهم ، إنهم سوف يصبحون فريسة لغيرهم من ذوي الأخطاء والعيوب والأخلاق الوضيعة ثم يتلاشون.

ألم يعلم ذلك الشخص أنه لو وجد في أصدقائه على سبيل الفرض ، والذهن يفرض المحال - كما يقولون – لو وجد شخص واحد لا أشخاص كثيرون ، شخص مبرأ من العيوب معصوم من الأخطاء ، لما استطاع هو نفسه أن يعامله كما تتبغي معاملته ، اللهم إلاّ إذا كان مثله مبرأً من العيوب معصوماً من الأخطاء.

إن أولى بالشخص قبل أن ينحي باللائمة على الناس وقبل أن يحكم عليهم بأنهم لا خير مطلقاً فيهم وبأنهم غير صالحين للصداقة ، لأن فيهم معايب ولهم أخطاء إن أولى به قبل أن يفعل ذلك أن يرجع إلى نفسه ليرى هل هو كذلك ؟ أم انه ليس من طينتهم ، ،انه ليس فيه عيوب وليس له أخطاء ، فإذا وجد نفسه كذلك ، فلم يعتب على غيره ذنباً ليس مختصاً به ؟ ولم ذا يعيب غيره بشيء قد أخذ منه بنصيب ؟.

نعم ، إن أولى بالشخص أن يجعل هذه القاعدة مبدأ له في معاملته مع الناس وأن لا ينظر للشيء من زاوية واحدة ، زاوية منفعته هو وزاوية مضرة غيره وعيب غيره هو ، بدون أن ينظر إلى نفسه حينما ينظر إلى عيوب غيره وبدون أن ينظر إلى محاسن غيره حينما ينظر إلى محاسن نفسه ومزايا نفسه.

إن الكمال المطلق في الإنسان غير موجود ، وإن الكمال الإنساني غير موجود إلا نادراً في الناس النادرين وقديماً قيل

"" النادر لا حكم له ولا يقاس على غيره "" ويكاد ينحصر في الأنبياء والمرسلين.

إذاً من هو الشخص الذي ينبغي أن نصادقه ، وأن نعده كاملاً أو نعده صالحاً لأن يكون صديقاً ، ونحكم عليه بالصلاح ؟.

الجواب : هو ذلك الشخص الذي تزيد حسناته على سيئاته ،ويزيد صوابه على خطأه ، وتزيد مناقبه على مثالبه ، وتزيد محاسنه على عيوبه.

هو ذلك الشخص فحسب ، فالشخص الذي يكون كذلك هو شخص حسناته أكثر من سيئاته ، وصوابه أكثر من خطأه ، وكفى بذلك مزية وثبة للشخص ليكون صالحاً للصداقة كفؤ لمعاشرة الرجل الكريم.

وذلك الشخص الذي تعد مثالية لقلتها هو شخص مثالي على أننا نعرف تمام المعرفة أن مثالية التي تعد ليست كل مثالية لأن الناس لا يعرفون كل مثالية ولكن حتى مع هذه المسألة فهو شخص مثالي وقديماً ألمع بهذا المعنى الشاعر بشار بن برد قصائد في أبيات هي.

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

ظمئت واي الناس تصفو مشاربه ؟

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

الشكوى من الناس

الناس هم زملاء الإنسان في الحياة ، وهم شركاءه في النعم وهم كذلك الأسيون له في المحن ، فهو يقاسمهم الحياة بما في الحياة من محن ومنح.

على أننا لو رجعنا إلى استعراض محن الحياة وفحصناها فحصاً دقيقاً لوجدنا أن جزءاً كبيراً من محن الحياة هو من صنع أيدي الناس وهي بسببهم حدثت للإنسان ولكننا كذلك إذا نظرنا إلى منح الحياة وجدنا جزءاً من منح الحياة هو بسبب الناس ولو أن نسبة هذا الجزء إلى جميع منح الحياة أقل بكثير من نسبة الجزء الحاصل من محن الحياة بسبب الناس إلى جميع محن الحياة.

يبدو لأول وهلة ينظر فيها المرء إلى الحياة وإلى الإنسان ، إن الإنسان مدين للناس في كل حياته ، أو في مقومات حياته ، وفي أسباب حياته وهذا لا يخلو من الصحة ، ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن لا دين هناك ولا مدين ، فهو مدين للناس بأسباب حياته بقدر ما هم مدينون له بسبب حياتهم.

وهو كذلك بالطبع محتاج إلى الناس ولكن بقدر ما هم محتاجون إليه ، فهو محتاج لهم كأفراد حيناً وجماعات حيناً آخر ، وهم كذلك محتاجون إليه كفرد حيناً ، ومع غيره كجماعات حيناً آخر ، أقول : كفرد حيناً وكجماعة حيناً آخر وأسوى بينهما أو أقارب لأن بعض الأفراد يقوم بما لا يقوم به الجماعة ، وكم جماعة عجزت عن القيام بما يقوم به فرد ، وكم فرد أثر في الجماعة ولم تستطع الجماعة أن تؤثر فيه كما أثر فيها.

إذاً فتشكي بعض الناس من الناس هو في حد ذاته لا مبرر له وهو في الغالب تشكٍ في غير محله ، وتلك الشكوى التي يتخيلها ذلك الإنسان ليست إلا شكوى خيالية ، لأن تلك الشكوى غالباً ما يكون تحتها من المنافع والمصالح ما يخفى على أكثر الناس الذين لو عرفوا ذلك فيها لحمدوا الله عليها بدل أن يشكوا منها.

فالناس هم السبب في حياة الإنسان أي في دوام حياته ، فلولا الناس وحاجتهم إلى البيوت يسكنون فيها مثلاً لتعطل الشخص البناء الذي يعيش من وراء حرفة البناء.

وقل مثل ذلك عن الحداد والنجار وحتى الكاتب ، فالكاتب هو نفسه بوصفه كاتباً وبالنظر إلى مادة كتابته مدين للناس لأن الناس بكل ما فيهم من اختلاف وما يحيط بهم من متناقضات ومتوافقات هم مادة الكاتب ، فنه ، ووحي قلمه ، وهو لذلك مدين لهم لأنهم هم يستهلكون بضاعته وهم الذين يجد الصدى لما يكتب عندهم ، على حين أنهم أي الناس مدينون لذلك الكاتب لأنه بصفته نفاذ البصيرة مرهف الحس بصير بأدواء الناس وأدويتهم عالماً بمناقبهم ومثالبهم يضع أيدي الناس على دائهم ليداووه ، وتارة ليداويه هو ويضع أيدي الناس على مناقبهم لكي يستزيدوا منها.

أو بعبارة أوضح إنه هو الذي يتكلم بلسانهم ويترجم لهم عما يريدون أن يقولوه ولكنهم لا يستطيعون قوله.

وعلى العموم كل إنسان من الناس مدين للناس ، والناس مدينون له وتكون النتيجة أن ليس هناك دائن ولا مدين وأن الناس بقدر ما يضرون الإنسان أو ما يتخيل أنهم يضرونه فهم ينفعونه.

تكون النتيجة بعد ذلك أن لا محل للشكوى من الناس لأن مضرتهم له كفرد هي في الواقع منفعة له بصفته عضواً من المجموعة الإنسانية التي قد ينفعها ما يظن أنه يضرها.

وبذلك نفسر بعض أضرار الناس التي يشتكي منها بعض الناس فالشخص الذي لا يقوم بعمله على الوجه الأكمل ، والحاكم الذي يجور في حكمه ، والكبير الذي لا يتصرف كما تقضي المصلحة العامة ومصلحة الناس أن يفعل كل أولئك إذا ما ثار عليهم الناس ، فنحوا الحاكم عن منصة حكمه ، وعزلوا العامل عن عمله ، وأبعدوا الكبير عما يمارسه وما يترتب على ذلك من مضرة لهؤلاء أي الحاكم والعامل والكبير أي عن مضرتهم الظاهرة بصفتهم أفراداً قد حصلت لهم منفعة وأي منفعة بصفتهم أعضاء في مجموعة الناس لأن نتيجة ذلك هي منفعة الناس وهم أفراد من مجموعة الناس.

وعلى مثل هذه القاعدة تبنى جميع أحوال الناس التي تبدو لأول وهلة مضرة وهي ليست مضرة ، نعم ، إنها مضرة في الظاهر ، في ظاهر الأمر ، وفي بادئ الرأي ولكنها ليست مضرة في الحقيقة.

وإنها كذلك لمجلبة للحزن لذلك الشخص وأنها لمبعث للكدر له ولكن ليس معنى ذلك أنها مضرة حقيقية ، وهل نشترط في كل منفعة أن تكون جالبة للسرور ؟ ومبعثاً للرضا والفرح ؟.

لا . إننا لا نشترط ذلك ، ولذلك فإن التشكي من الناس في غير محله ، والشكوى من الناس لا تقوم على أساس صحيح.

من وحي الصداقة

وبعد أن تخمد نار الشر من فؤادك ، وبعد أن لا ترى لك نافذة تطل منها إلى عورات صديقك.

وبعد أن تنسى ولا تتناسى أنه أرفع منك قدراً وانبه ذكراً وأعلى مكانة ، مع أنه هو ذاك الشخص الذي كنت تعرفه قبل ذلك يكاد يقصر باعه عن اللحاق بك ، وتعجز مكانة أبيه الاجتماعية أن تقارب مكانة أبيك.

أما ثيابه فهيهات أن تعد بجانب ثيابك إلا أن تصلح بعد أن تغسل جيداً كالبقجة لثيابك النظيفة المعطرة.

إنك بعد ذلك ، وبعد أن تنسى تلك الألفاظ التي ترددها في نفسك ولا تفتأ ترددها كل حين بأنه يجب أن لا ترتفع مكانته عن مكانتك ولا ينبه ذكره قبل ذكرك ولا يقدمه الناس في المجلس قبلك لا لأنه لا يستحق ذلك لأن مواهبه لا تؤهله لذلك ، فأنت أعرف الناس بمواهبه ومميزاته وصفاته ، وأنت أعظم الناس أو من أعظم الناس إعجاباً بها وتعجباً من سموها وعظمتها وندرتها ، وأنت أدرى الناس بأن ما يكفيك لكي تلحق به بل وتبزه وتتفوق عليه هو أن يكون لك جزء من مؤهلاته وصفاته.

بل لأنك أنت لا تريد ذلك ، لا تريد أن يكون ذلك الشخص الذي صادقته طويلاً وصادقك طويلاً ، وأخلصت له الصداقة كثيراً وأخلص لك الصداقة أكثر وكان يحترمك لأنك صديقه وصرت تحترمه لأنه صديقك.

ذلك الشخص الذي لم يحترمك لطيب ثيابك ولا لكثرة مالك ولا لغنى والدك فما نفعه ذلك في شيء ، ولكنه يحترمك لأنه يجد فيك بعضاً من صفات نفسه ويحس لديك - وهدفكما واحد – بحافز يحفزه على مواصلة السعي إلى هدفه الذي رسمه لنفسه.

وأنت لم تحترمه لأنه الشخص الفقير المهلهل الثياب الخالي الوفاض من متاع الدنيا.

لم تحترمه لأنك وجدت عنده ما وجد عندك ووجدت عنده زيادة على ذلك ما اشبع غريزة حب الكبرياء في نفسك ، ودواء مركب العظمة الذي أصبت به منذ أن نشأت فتى مدللاً غنياً مرهف الإحساس لا ترضى عن الشخص ما لم يراع كلماته التي يوجهها إليك ، وأقواله التي يتحدث بها لديك ، لئلا تكون فيها كلمة واحدة لا تليق بمقامك أو نابية يتألم لها فؤادك.

وقد كان لصاحبك من تواضعه ، وشدة ذكائه ما جعله يحذق ذلك حتى أصبح الأثير عندك والمقرب لديك والصديق الوحيد الذي لا غنى لك عنه.

إنك – يا صاحبي – بعد أن تنسى ذلك ولا تتناسى ، لتحس اليوم بحاجتك إلى صديقك القديم ولتحس بذلك الفراغ العظيم الذي أحدثه ذلك الفراق الطويل بينك وبين صديقك والذي كان سببه عدم اعترافك بواقعك وواقع صديقك لأن ذلك الواقع لا يرضيك.

وهل يرضيك أن تجد صديقك اليوم خلافه بالأمس ، أرفع منك مكاناً وأعلى شأناً ، وانبه ذكراً وأجل قدراً.

إنك لتحس بذلك ولكن أنى لك أن تعود إلى سابق حالك بعد أن سأم صديقك من الصفح عنك والمجاملة لك.

لقد صفح عنك كثيراً ولقد اعتفر لك احتقارك إياه وسط الملأ من الناس الذين يجلونه ويعظمونه وأنه ليعلم مبعث ذلك الاحتقار ومثار ذلك التحقير إلا أنه كان أبعد منك نظراً وأكثر وفاء ، لقد رضى لنفسه أن تحتقره المرة بعد المرة مؤملاً أنك سيثوب إليك رشدك ، وسترجع عن غيك وستسلم للأمر الواقع وسترضى بصديقك صديقاً لك وأنت صديق له كما كنتما في سالف عهدكما صديقين حميمين مع فارق واحد.

وذلك لأنكما في السابق تحسان إذا ما خرجتما عن نطاق الصداقة وتجاوزتما حدودها بأن أحدكما يختلف لدى الناس عن البعض الآخر وأنك ارفع منه قدراً وأعرض جاهاً وأعظم وجاهة ، أما الآن فسوف يختلف ذلك الإحساس سوف يتغير الحال بالنسبة له رأساً على عقب ، سوف يحس صديقك وسوف تحس أنت إذا ما خرجتما عن نطاق الصداقة وتجاوزتما حدودها بان صديقك ارفع منك قدراً وأعلى مكانة وأعرض جاهاً . ولكن ذلك لن يرضيك ولن يرضي صديقك أن لا يرضيك ذلك.

وأنكما تستمران على ذلك هو ليس راضياً عنك ، عن غرائز الشر في نفسك ، وأنت لست راضياً عنه ، عن الأقدار التي رفعته فوق منزلته التي وضعته فيها من نفسك والتي أحللته فيها على أساس ما تعرفه عنه قبل ذلك.

الناس أجناس

الناس أجناس منهم الأبيض اللون ومنهم الأصفر والأسمر والأسود وليس ذلك بالشيء العويص الفهم فهو يستوي في فهمه ومعرفته الذكي والبليد بل أن الحيوان يشترك في فهمه مع الآدميين فإنه إذا أعتاد أن يقدم بغذائه أدمي أسود اللون فإنه لا يشرأب عنقه لقدوم الرجل الأبيض يشرأب إذا قدم شخص اسود.

نعم ، إن ذلك شيء غير خاف على كل أحد ولكن الناس أيضاً وكفى بكلمة الناس كلمة تشير إلى مختلف العادات والخلائق والصفات والغرائز والمتناقضات والمتشابهات والمتباينات والمتوافقات.

الناس أجناس ، أخلاقهم أجناس ، فيهم الأمين وفيهم الغادر ، وفيهم العاجز عن الغدر ولو قدر عليه لما تردد في أن يكون غداراً.

وفيهم الكريم الذي يقدر على الغدر ولكنه لا يغدر ، فيهم من ترتفع به أخلاقه حتى يكاد يبلغ بذلك منزلة الملائكة الطاهرين.

وفيهم من تسفل به أخلاقه حتى تنزل به عن رتبة الحيوانات بل السافل من الحيوانات ((إن هم كالأنعام بل هم أضل)).

الناس في أخلاقهم وسجاياهم أجناس تكاد تفصل بين فريق منهم وفريق آخر فوارق أكثر من تلك الفوارق التي تفصل بين الإنسان والحيوان.

بالله ما هي الجامعة التي تجمع بين ذكاء الياس بن معاوية وغباء هبنقة بن أبيه لدى العرب ؟ إنها بلا شك أكبر مسافة من تلك التي تجمع بين الأخير وبين الكلب المعلم أو الحمار ، ولا نقول القرد الذي جعله (دارون) أبن عم للإنسان.

لا نريد أن تبحث في أجناس الناس ناس التاريخ ولكني أبحث في الناس ناسي أنا ، ناسي الذين أخالطهم ويخالطوني ، ولا تمضي ساعة من ساعات الزمن بدون أن ألتقي منهم أحداً أو أخاطب منهم فرداً.

هؤلاء الناس هم كناس التاريخ وناس الكتب أجناس ، فيهم الرجل الغليظ الطبع ، والقصير النظر ، الحيواني الشعور ، البليد الذهن ، الذي لا يرضى عنك حتى تكون مثله غليظ الطبع قصير النظر حيواني الشعور بليد الذهن أي حتى توافقه في طباعه ، إنه ينظر إلى الحياة من خلال طبعه وهو يطلب أن تكون مثله فتنظر إلى الحياة كنظرته.

وهذا لا يتأتى لك إلا إذا تحليت بتلك الصفات وهذا ما لا ترضى عنه بل ولا يمكنك أن ترضى عنه ، إذا أردت أن ترضى عنه ، إذاً فلتبق معه في نزاع دائم.

ومنهم الشخص الذكي النبيه ، القوي الملاحظة ، المرهف الشعور المشبوب العاطفة الذي لا يرضى عنك إلا إذا عاملته على هذا الأساس وسلكت معه طريقاً يؤدي إلى ما يؤتيه ويلائمه ، أنه يطالبك لكي يرضى عنك أن تحترس في معاملتك له من كلمة ولو غير مقصودة منك تؤذي شعوره المرهف وتخدش إحساسه الرقيق.

أنه يفسر كل ملاحظة ويزن كل كلمة ويحصي كل نفس وأنه يرى أنك مثله وأنه يجب عليك إذا ما أردت أن يرضى عنك أن تتحلى بصفاته وأن تخلع على نفسك ما خلقه اله على نفسه وما ذلك - ولو حاولته - بمستطاع.

أما ذلك الشخص المتملق ذو الوجهين الذي يخالف باطنه ظاهره ، ويباين سره علانيته ، والذي يخدعك منه لين المظهر ووداعة الجانب ومعسول الكلمات فهو الصنف الجاني الذي لم يجني عليك وعلى صنفه فحسب وإنما جنى على الصنف الآخر.

الصنف النظيف القلب الرقيق اللسان عن صدق وإخلاص الذي لا يخالف باطنه ظاهره ، ولا يباين سره علانيته الذي يمحضك النصح ويبدي لك سريرة نفسه كما هي في نفسه وكما هي نفسي الأمر.

وإن هذين الصنفين وإن التميز بينهما لهو أصعب ما يواجه الشخص الذي يخالط الناس : الناس الذين تلتقي مصالحة بمصالحهم وتشتبك في معاملاتهم.

ومنهم أي الناس ذلك الجنس الرفيع الهمة الكبير النفس الذي قد أصيب بمركب العظمة فتراه يطلب منك أن تتصوره حين تخاطبه ملكاً إن كانت نفسه تستشرف إلى التعظيم ، أو تتصوره عالماً كبيراً إن كان طالب علم أو تتصوره وجيهاً محترماً إن كان وضيعاً أو من أصل وضيع.

ومنهم جنس يمشي في الطريق الذي يوليه سابقُه ظهرَه فهو صغير النفس صغير الهمة قد أصيب بالشعور بالنقص حتى ليتخيل أنك تستهزئ به إذا ما خاطبته ، على ما في نفسك وفي نفس الأمر من مرتبته ويظنك تحتقره إن عظمته ، وينتحل الأسباب التي من أجلها وضعته في تلك الرتبة التي تظن أنه جدير بها ومستحق لها.

إن الناس أجناس وإن أجناسهم كثيرة ليس بمحيط بها أو أكثرها إنسان ، إن كل جنس من أولئك الناس ليطالبك بأن تكون

وفق هواه وطبق رضاه وأن تنظر إلى الأشياء كما ينظر إليها بل وأن تنظر أنت إلى نفسك كما يراها هو وأن تكيف نفسك كما يتخيلها ويحب أن تكون.

أما نفسه وأما مصالحه ، فالويل لك ثم الويل إذا ما حدت عن الطريق الذي أنتهجها إلى تصورها أو تركت خطاً أو لوناً من الصورة التي رسمها لها.

أنهم - أي الناس - إذاً ليطالبونك بان تكون أنت مثلهم أجناساً لا جنساً واحداً ، وهم يطالبونك تبعاً لذلك بأن تجمع بين المتناقضات وتؤلف بين المتباينات وأن تكون سجلاً لطبائع البشر وديواناً لمختلف عاداتهم وطبائعهم وما باستطاعتك ذلك حتى ولا بعض ذلك.

ولو أتعبت نفسك وأفنيت عمرك وضيعت مواهبك وركزت جهودك في درس طبائع الناس وأحوالهم لما وصلت إلى غايتك ولما استطعت أن تصل منها إلا إلى قليل من كثير وبعض ضئيل من كل كثير ، إن الشاعر العربي يقول :

إذا كنت في كل الطباع مركباً

فأنت إلى كل الأنام حبيب

ولكن ذلك يجريه اللغويون مجرى الشروط التي لا يقع جوابها أبداً لاستحالته ، فمحال أن تكون في كل الطباع مركباً ولذا فإنه من المحال أيضاً تبعاً لذلك أن تكون إلى كل الأنام حبيباً على أننا لا نطلب أن تكون حبيباً إلى كل الناس ولا يطلب منك الناس المنصفون المقتصدون أن تكون حبيباً إلى كل الناس وإنما نطلب منك ويطلبون منك أن لا تكون عدواً لكل الناس بمعنى انه لا يكون لك عدو من

الناس ، ولكن هذا أيضاً شيء مستحيل وشيء خارج عن طاقة الشخص حتى يكون ذلك الشخص في كل الطباع مركباً وما هو بكائن.

إذاً عرفنا أن الناس أجناس وأن مشكلة كونهم أجناساً ليس كون ألوانهم أجناساً ، أو كون مظهرهم الخارجي مختلفاً اختلافاً يجعلهم أجناساً كثيرة وهم في بعض الصفات ليسوا أجناساً أو هم هم أنفسهم يدعون أنهم ليسوا أجناساً وإنما هم جنس واحد.

وضرر كون الناس أجناساً يقع على الناس أنفسهم الناس الذين هم أجناس لأن كل جنس منهم يزعم أن جنسه هو الذي يجب أن يتجنس به الأجناس الأخرى من الناس لأنه – في نظره – هو الجنس الفاضل المفضل.

إذاً لا يحق لنا أن نقول : ويل للناس من الناس ، ما دام الناس أجناساً وسوف يدومون كذلك ما داموا أناساً.

أما الشخص الواحد مثلي ومثلك ومثل أي شخص آخر فإنه سوف يشقى بالناس لأن الناس أجناس ، وهو جنس واحد أو فرد واحد من جنس واحد من أجناس الناس وقديماً قيل (رضا الناس غاية لا تدرك).

أخلاق قطعية

كنت اعرفه صلب العريكة ، شرس الأخلاق ، أناني النفس لم يرزق حظاً من الحياة الاجتماعية إلا ما لا يخرج به عن دائرة الإنسان الاجتماعي.

أما اللباقة واللياقة فذلك ما قد حرمه من أصل الخلقة ، إلا أنه في بعض الأحيان يرى أناساً محبوبين من الناس ، ويرى من أخلاقهم أنهم لبقون لائقون فيحاول أن يقلدهم ولكن محاولة الغراب عندما أراد أن يقلد القطاة في مشيتها كما يقول القدامى ، فهو بذلك يخرج من طبعه الساذج الذي إن شفع له شيء شفع له كونه بأصل الخلقة ، إلى طبع آخر يفرضه على نفسه وهي لا تستطيع ذلك.

ولم يكن حظي منه بأحسن من حظ غيري من الناس فكان يلقاني بما جبل عليه من خشونة وقلة ذوق.

ولكنني كدت أنكر نفسي في أحد الأيام ، فقد اقبل الي بوجهه هاشاً باشاً وإن كان يبدو ذلك جديداً عليه لا يحذق منه شيئاً تمام الحذق ، إلا أنه قد تدرج من ذلك إلى أنواع من الإكرام يمكن أي أحد من الناس أن يأتي بها.

تعلق بي وجعل يكيل النعوت الطيبة الحسنة التي يتحلب لها ريق الرجل المصاب بمركب النقص والتي لا ينبغي أن يكيلها لي قبل أن أكون مالكاً لأمره ، متصرفاً بعض التصرف في مستقبله.

ثم إنه لم ينس أيضاً أن يسأل عن بعض الأشياء الخاصة بي والتي لا يهم أمرها غيري ، كمن يحاول بفعله ذلك أن يشعرني بأنه

يشاركني في شعوري حتى في هذه الأشياء وأنه شقيق لروحي ومشفق على ما تشفق عليه نفسي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه أخذ يعتذر عن تقصيره في الماضي ويقول بلسان الحال الذي يدل عليه أفانين من المقال إنه من سؤ حظه أنه لم يهتد لما يجب عليه لي من حق ولما يوجبه العلم من واجبات إلا في هذا الحين ، ولذلك فهو الآن يحس وكأنه الضال الذي هدي إلى ما ضل الطريق إليه فهو يحمد الله تعالى على توفيقه له للهداية ، ويسأله العفو عن الماضي ، ويعد في المستقبل أن يكون بي حفياً ، ولي وداً يعرف لي حقي ويقدرني حق قدري.

ثم إنه أشرك الزمان والقدر والظروف التي جعلته يظل في غوايته وضلالته فلم يعرف حقي عليه إلا في هذا اليوم !

ويعلق على ذلك بأنه سوف ينتقم من كل أولئك سوف ينتقم من الزمان ومن الأقدار ومن الظروف في المستقبل على ما سببته له في الماضي!!!

أما أنا فقد بهتُّ ولم أجد ما أقابل به كل ما غمرني به من تلك النعوت وما اسبغ علي من ثياب ثناء فضفاضة ناصعة ولم املك إزاء ذلك إلا أن أقابل نعوته لي التي جانب فيها الحقيقة بنعوت أضفيتها عليه تجانب الحقيقة ولكنني معذور ، فما بيدي غير ذلك.

وأنا أعلم في تلك اللحظة أنني غير صادق وأنني مجانب للحقيقة في ذلك.

ولكن ما العمل غير ذلك ؟؟

وما هو ذنبي وهو كذب علي وكذبت عليه ؟

أو كما قال أحد الملوك الذي كان من قصته أنه كان جالساً إذ دخل عليه شاعر فأنشده قصيدة طويلة عصماء كلها مدح له وثناء عليه ولكنه مدح وثناء هو ابعد ما يكون عنه فما كان منه إلا أن أمر له بجائزة كبيرة لم يكن الشاعر يحلم بعشرها ، فعتب عليه وزيره ، وقال : أيها الملك أمرت له بما تعجز خزانتنا عن بلوغه وسوف نستدين على ما فيها وبعد ذلك سوف نبقى مفلسين.

فأجابه الملك بأن قال : لا ، يا وزيري ، فالأمر أسهل من ذلك ! أو تظن أننا حقاً سنسلم ما امرنا به له ؟ لا ، فهو أعطانا كلاماً وأعطيناه بدله كلاماً.

هو كذب علينا ونحن سوف نكذب عليه !!!

أقول : جعلت أكذب عليه بكيل النعوت المقابلة لنعوته ، كما يفعل كل واحد في هذه الدنيا !

إذا ما مدحك إنسان وأنت تعلم أنه كاذب مدحته كذلك ولو كنت تعلم أنك كاذب وهو كذلك ارتاح لمدحك ولو كان يعلم أنك كاذب في مدحك له.

بل إن الناس قد اصبحوا أو هم مازالوا كذلك قد كانوا يبيعون المدح ويشترونه ، فأنت تمدحني ولست صادقاً في مدحك ، ولست مؤمناً فيما تقول ولكنك تمدحني لكي أمدحك لكي أقابل مدحك بمدحي لك.

ولم أبخل على صاحبنا بتلك النعوت ، بنعوت المدح الذي هو ابعد ما يكون منها.

ولكن ظهر لي أن ذلك يغضبه وكأنه لم يرتح إليه فعجبت من ذلك ، وقلت : إن هذه المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً يبغض مدحه وهو جاد في ذلك فما هو السر يا هل ترى ؟ لقد تحيرت في ذلك.

ولم يدعني أذهب واتركه إلا وقد اخذ مني موعداً بحفلة شاي يقيمها في بيته.

ولما ذهب عني وذهبت عنه جعلت أدير الرأي في فكري ما الذي جعله ينقلب شخصاً جديداً غير شخصه الذي أعرفه ويعرفه الناس به قبل ذلك ؟.

ثم يا هل ترى ما الذي جعله يختصني بعنايته ورعايته ؟

وقالت لي نفسي : ربما كان له لديك حاجة وكان قصده من ذلك التوصل إلى منفعة شخصية له.

ولكني أنا لست الرجل الذي تعلق عليه الآمال الكبار لأنني لست بصاحب المال الكثير أو المنصب الكبير أو الجاه العريض حتى يتملقني أو حتى أوهم نفسي انه إنما فعل ما فعل لأجل ذلك.

ثم قالت لي نفسي مرة ثانية : عندما عجزت عن أدراك السر في تحوله من خلق قديم إلى خلق جديد : إن القدرة الإلهية صالحة لكل شيء قد يجوز أنه فعلاً وحقيقة قد انتقل من طبيعته الأولى على طبيعة ثانية!

ربما فذلك ممكن فقلت قد يكون.

وكذلك الإنسان إذا ما عجز عن إدراك شيء من الأشياء عمد إلى شيء يخفف عنه من أثر عجزه ، إما أن يفوض ذلك إلى القضاء والقدر أو إلى شيء أخر خارج عن قدرته.

وقابلني مرتين أو ثلاثاً كل أولئك يكرر فعله وأكرر فعلي معه أزيده مدحاً إذا مدحني بل وأنا اعرف منه بالنعوت التي يتمناها الكثير من الناس فأنا أحفظ منها أكثر مما يحفظه ، فكان ذلك مثار متاعب له يرتسم أثرها على وجهه إذا ما قاربت أن اغلبه على نعوت المدح التي أمدحه بها.

ولم أدرك السر في ذلك إلا عندما قال وهو أشبه بالقطّ إذا ما قدم خُوان الطعام يخفض بصره ويمسح يدي ورجلي برفق إلا عندما قال : إن له لدي حاجة وأنه قد اختارني من بين ناس عديدين كلهم يصلحون لقضاء حاجته ولكنه آثرني بقضائها من بينهم لأنني أكثرهم لياقة بقضاء حاجته وبقضاء حوائج غيره لما لي من الصفات التي تؤهلني لذلك !

واكتشفت الآن كل شيء اكتشفت السر في تحوله من طبعه إلى طبع آخر وإن كان مصطنعاً ، واكتشفت سر بعثه خلقاً جديداً واكتشفت سر كونه لا يرضى أن أغلبه بالمدح فيصبح عند ذلك الشيء الذي يمكن أن يتوصل به إلى قضاء حاجته شيئاً نصيبي من إسدائه إليه أكثر من نصيبه من إسدائه إلى.

اكتشفت أنه من أولئك الناس (القطط) وإن كانت القطط أحسن حالاً منه وأشرف مقصداً وأنزه غرضاً فهي بفعل ذلك : بتملقها ونفاقها ترمي إلى غرض صحيح إلى إشباع بطونها أو زيادة إشباعها.

وهي كذلك تفعل ذلك بالفطرة وهي صادقة.

أما ذلك الرجل وأشباهه فهم يفعلون مثل تلك الأفعال وهم يستعيرونها من القطط فيكون لهم من تلك الصفات التقليد والنفاق :

التقليد الذي لا يثمر شيئاً غير الشك في كل الناس الرقيقين الطيبي القلوب الليني الألسن.

فهم بذلك يسيئون إلى الناس الطيبين حقيقة لا مجازاً وأصالة لا اقتراضاً ، وإن القط إذا قضيت له حاجته وأنعمت عليه بباقي سفرتك بذل لك ما في وسعه من مساعدة ونصب نفسه حارساً لبيتك ، ولا نريد أن نبحث في هذا الأمر أهو فعل ذلك لحظك لكي يدفع عن البيت غارات المغيرين من القطط المفسدة أم هو يفعل ذلك لكي يستأثر بكل سفرتك وفتات طعامك له وحده فلا يكون عمله هذا بدافع الوفاء لك ولكن بدافع الأنانية منه.

لا نريد أن نبحث في ذلك فهو على كل حال مفيد لك وإنك بدلاً من أن يكون خصمك قطاً واحداً تعرفه ويعرفك وتدرس طباعه ويدرس طباعك لا ترضى أن يكون خصمك أو خصمائك قططاً كثيرة لها صفات متباينة قد يكون ما يخفي عليك من صفاتها وعاداتها ، ومواطن الضعف والقوة منها أكثر بكثير مما يظهر لك !

أما ذلك الإنسان القططي فإنه ولا شك في ذلك عندما تقضي له حاجته وتلقي إليه من فتات مائدتك أو من جيد مائدتك سوف يعود إلى حالته الأولى ، سوف يعود إلى ما كان عليه ، سوف يعود آدمياً شريراً ينظر إليك نظرته إلى مصدر من مصادر تحصيل أغراضه.

بل إنه يتجاوز ذلك في بعض الأحيان فيرميك بما ليس فيك ، يرميك بأنك مغفل وأحمق وجبان.

وأنك لم تقض له حاجته إلا لخوفك منه وعجزك عن أن ترده بغير قضاءها !

الواقع أن مثل أولئك الناس لجديرون بالحرمان وجديرون بالمقاومة حتى يروا أن طريقتهم تلك الطريقة القطعية لا تجدي شيئاً ولا تنفع في تنفيذ أغراضهم وبلوغ مآربهم لعلهم ينتهون عنها ويقلعون عن ممارستها.

بل إننا إذا نظرنا في الحقيقة إلى ابعد من ذلك نجد أن من يقضي حاجة لأحد من أولئك ، أو ينيلهم مأرباً بواسطة مسعى من مساعيهم لهو مجرم.

أي نعم ، مجرم حقا في حق الناس زملائه في المحنة بهؤلاء ، لأنه بعمله ذلك يشجعهم – أعني القطعيين – على احتراف هذه المهنة ويشعرهم بنجاحها.

بلى وأي مقابل

تقول يا صديقي إنك قد خدمته – أي صنعت إليه معروفاً – بدون مقابل ثم تزهوا بعملك هذا وتأخذ بترديده مدللاً به على كرم أخلاقك وطيب فعالك ، ووفائك لصديقك لأنك قد خدمته بدون مقابل.

ثم تردد ذلك كثيراً في مناسبة وفي غير مناسبة ولكنك أنت تجعلها مناسبة ولو كلفك ذلك أن تلف وتدور حتى تجعلها مناسبة مشيداً بعملك متحدياً الزمن أن يجود بمثلك شخصاً يخدم صديقه بدون مقابل.

ثم أسألك : هل صنع لك قبل ذلك معروفاً نويت أن تكافئه على ذلك بعملك هذا فصنعت إليه معروفاً بدون مقابل ؟

فتجيبني معتداً بأن تنفي كل ذلك.

ثم أسألك مرة ثانية : هل تؤمل أن يصنع إليك معروفاً في مقابل ما صنعت إليه من معروف ؟

فتسارع بالإجابة بأنه لم يكن في نيتك شيء من ذلك ، وأنا أعرفك قديماً بأنك تصدق غالباً فيما تقول واعتقد بأنك صادق فيما تقوله الآن حينما تنفي كل ذلك.

ثم أسألك عن سبب صداقتك له ومن أي نوع من أنواع الصداقة هي ؟

ولكل نوع من أنواع الصداقة أحكام ، ولكل منها حدود وأقسام !

هل صداقتكما ناشئة عن زمالة في العمل أو قرب في الدار ، أو قرابة في النسب أو اشتراك في المبدأ ؟

فتجيبني بأنها نشأت لا عن شيء من ذلك ولكن عن شيء غير ذلك ، ثم تقول إنها نشأت عن توافق في الإرادة ، وتشاكل في المزاج وتشابه في التفكير حتى إنك لتعلم علم اليقين أنه سوف ينطق إذا ما أراد أن ينطق كما تريد أن تنطق فينطق كما تريد أن ينطق وكما تنطق أنت لو نطقت !

لقد أحسست كما يقول – لأول وهلة عرفته فيها - كأنك وهو في بطن الدنيا توأمان قد اجتمعت في روحيكما خصائص أكثر مما تجتمع في جسمي التوأمين الخصائص ، ولذلك فإنك تجد في قربه والتحدث إليه والإفضاء له عما في نفسك فرجة لهمومك ومدعاة إلى سرورك ، وراحة مما يعذب نفسك من شؤون نفسك ، لقد وجدت فيه من ذلك ما افتقدته في غيره ، بل ما لم تجده في غيره.

ولقد كانت استدامة ذلك شيئاً لا تبخل بكل شيء عليه ومن ذلك الشيء الذي لا تبخل به عليه أن تصنع إليه معروفاً ، ومن حقك أن تفعل ذلك ولكن ليس من حقك وليس من الحقيقة في شيء أن تدعي أن ذلك المعروف الذي تصنع إليه هو في غير مقابل.

نعم ، إنه ليس في مقابل شيء مما تعارف أكثر الناس على أنه مقابل ولكنه مقابل وأي مقابل لأنه مقابل معنوي ، والمعنويات لا تقارن بالماديات.

وما بالمادة أن تكون سبيلاً للمعنويات إلا أن تمهد لها السبيل وتذلل أمامها العقبات.

إنه – يا صاحبي – مقابل وأي مقابل.

وآية ذلك أنك لا تستطيع الحصول على مثله بما تسميه أنت مقابلاً وما تعارف الناس على أن يسموه مقابلاً.

بل أكاد أقول إنك لم تصنع إلى صاحبك ذلك المعروف الذي تزعم انك صنعته إليه بدون مقابل ولكنت صنعت ذلك المعروف إليك أنت : إلى نفسك.

لأنك بصنعه إليه تنتظر منه المقابل ولكن ذلك المقابل شيء ليس من جنس معروفك بل هو من جنس أعلى من جنس معروفك والفرق بين المعروفين كالفرق بين المادة والمعنى وشتان ما بين الاثنين.

الشقاء بالأصدقاء

يقص علي صديقي فلان شقاءه بأصدقائه فيقول : إنك ولا شك تعرفني جيداً وتعرف نفسيتي ؟ وتعرف معاملتي لأصدقائي وتعرف معاملتهم لي.

تعرف أن معاملتي لهم كانت معاملة الصديق المخلص لأصدقائه المخلصين.

إذا ما جلست إليهم ، أو جلسوا إليَّ فلا أفكر إلا فيما يزيد صداقتنا تمكيناً ، ويوطد أركانها توطيداً ، ولا أفكر في نفسي إلا بعدما أُفكر في نفوسهم ، وإذا فكرت في نفسي فإنما لأكيفها كما يريدون وقت جلوسي معهم ؟.

قلت : اعرف ذلك.

قال : وتعرف أنني أنظر إليهم لا كأفراد من المجتمع ينتمي كل منهم إلى طبقة تخالف طبقة الآخر وأسرة تختلف عن الأسرة الأخرى وينظر إليهم المجتمع نظرته إلى أُسَرِهِمْ نظرة تمييز وتفريق بينهم.

أما أنا فإنني أنظر إليهم من ناحية واحدة ناحية كونهم أصدقاء لي فقط ، فلا أُمَيِّز بين صغير وكبير ولا شريف ووضيع ولا غني وفقر لأن الجميع أصدقائي الذين جمعتني بهم الظروف المدرسية ووثق عرى الصداقة بيني وبينهم تشابه في الأهداف ، وتوافق في الميول وتقارب في المزاج !.

قلت : نعم !.

قال : ولعلك تذكر منذ فترة طويلة يوم أنه قال لي بعض الرفاق ما بالك تعظم فلاناً وهو هو حقير المنبت صغير القدر ، إن تواضعه يبلغ

جداً يخرج معه من التواضع حتى يصبح من غمط النفس حقها ومنح الآخرين ما لا يستحقونه من حقوق.

قلت : نعم أذكر ذلك على بعد عهدي به.

قال : ولقد جازاني أصدقائي – عافاهم الله – في سابق عهدي وعهدهم كما كنت أصنع معهم ، كنت واحداً منهم يعرفون لي حقاً كما يعرفون لبعضهم بعضاً ذلك الحق : حق الصداقة ، وحق المساواة كواحد منهم ، بدون تمييز بتشريف أو احتقار.

فأتقبل ذلك منهم شاكراً لأنه هو الحقيقة.

لأنني لا أزيد على أن أكون واحداً منهم ليس لي ما يؤهلني للامتياز عليهم بارتفاع أو انحطاط.

ولكن ! ولكن الأيام مشت ومشت بنا معها وأصبحت موظفاً كبيراً أكبر من أي واحد أعرفه من أصدقائي وتمنيت لو أن أصدقائي كلهم حصلوا على ما حصلت عليه من تلك الوظيفة التي يصحب مثلها عادة جلال القدر ونباهة الذكر وإكبار الناس.

ولكن لم يكن لي من ذلك إلا ما يكون للمتمني مستحيلاً.

فلم يكن لأحد منهم حظ مما قد حصلت عليه.

لا أدري أذلك بمحض المصادفة أم لشيء آخر.

ولكني على أية حال قد حصلت عليه ، وأصبح الناس الذين لا يعرفونني يلقونني بما كانوا يلقون به أمثالي ممن أتيح لهم أن يتسنموا ذروة ذلك المنصب الرفيع : بالحفاوة والإجلال وبالتعظيم والإكبار !

وكانوا أي الناس يمنحونني ذلك عن طيب بال وسخاء نفس لأنني لست أول من منح ذلك ممن كان في مرتبتي ، ولن أكون آخر من يمنح مثل ذلك.

انتظرت من أصدقائي أن يغدوا إلي مهنئين كما يغدو إليَّ غيرهم من الناس وإن يشاطروا غيرهم استقبالي كموظف جديد كما يفعل الآخرون.

انتظرت منهم ذلك لا لكي استزيد بمدحهم من المدح فما بي حاجة إلى المدح ، ولا لكي أمتع نفسي بتعظيم الآخرين لي فلقد اتخمت من التعظيم.

ولكن انتظرت منهم ذلك وأن يهرعوا فرحين لأنه قد فتح لهم بتوظيفي باب جديد لقضاء حوائجهم والنظر في أمورهم ولأن الفرحة لذلك يجب أن لا تكون قاصرة علي لأن المنفعة سوف تعود على الجميع.

ولكنهم لم يحظروا ولم يهنئوا.

وفي وسط الزحام زحام عبارات المهنئين على أذني سمعت منهم عبارات التهاني التقليدية التي لا يخامرني شك في أنها لم تتجاوز ألسنتهم.

وسكت إزاء ذلك ولم اصنع شيئاً إلا أن رجعت إلى نفسي لأتهمها بالبلد وسطحية النظرة وعدم معرفة الحقائق.

ثم جعلت ألتمس الأعذار لهم من باب الاحتياط قبل الحكم عليهم من نفسي بحكم.

لعلهم معذورون ، لعلهم لم يفعلوا ما ظننته خوفاً من أن نتهمهم بالتزلف والنفاق.

لعلي وعسى ، وعسى أن يكون ذلك صحيحاً فلا افقد إخواني ولا أسيء الظن بهم في نفسي.

ولكن – وما أسوأ لكن هذه – لقد وصلت إلي أخبار كثيرة لم اصدق في بادئ الأمر أن تكون صحيحة بل ولا يتصور ذهني أن تكون كذلك إلا إنني تيقنت مع الزمن صحتها.

تلك الأخبار تقول بأن أصدقائي أولئك قد جعلوا من صداقتهم لي وسيلة إلى القدح فيَّ وجعلوا من معرفتهم لأحوالي الداخلية أداة للوقيعة في ، وكيل النعوت الفاغرة أفواهها : نعوت الذم والسخرية ونعت الدهر بالبله والتغفيل لأنه سمح لمثلي بأن يرقى لمثل هذا المنصب !.

وجعلوا يردون للناس قولهم : أمثل ذلك الشخص الذي نعرف من صفاته كيت وكيت ونعلم من أحواله كذا وكذا مما يبعده عن وظيفته لا أن يقربه إليها أمثال ؟ ذلك الشخص يصلح لمثل تلك الوظيفة ؟!

أما حديثهم فيما بينهم فمن حسن حظي أنه لم يقتصر على الوقيعة في وحدي وإنما يوجهون لومهم إلى الزمان وخالق الزمان على ذلك التصرف الذي لا يوافق – فيما يزعمون – العقول.

ثم سكت لحظة ثم قال :

ألا ترى يا صاحبي أنني قد شقيت بأصدقائي ؟

ألا ترى أنني لو لم اعرفهم ولم اعرف الأصدقاء لم اشق بهم ؟

وألا ترى أنهم لو لم يكونوا لي أصدقاء ولو لم يعرفوني حق المعرفة لكانوا في عداد المهنئين الصادقين ؟ ولكانوا في عداد المعظمين ؟

آهـ أنني لا أريد منهم أن يعظموني ، ولكن لما كانوا على الأقل حرباً عليَّ وعوناً للأعداء !!!

قلت : نعم أما سمعت قول القائل

إحـــذر عـــدوك مـــرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما أنقلب الصديق فـكـان أعـلـم بالـمـضرة

أنت تجني على الصداقة

قلت لك يا صاحبي : إنك بعملك تجني على الصداقة في شخصي وشخصك.

أنت تجني على الصداقة في شخصي وشخصك لأنك لا تريد لي أن أجاملك .

أنت لا تريد لي أن أجاملك لأنك تحملني على أن أحمل على نفسي ما لا استطيع أن أقنعك بأنها لا تستطيع ، ثم لا تستطيع أنت أن تقنع نفسك بأنني لا استطيع أن أقنع نفسي بأنها تستطيع.

إنك – يا صاحبي – منذ أن عرفتك ولا ادري أأنت كذلك منذ أن عقلت قد أخذت على نفسك بأن تكون مطرب الجيل بنكاتك ، ومضحك الجميع بكلماتك ، وجالب السرور لكل حزين ، ومعلم الناس أن يضحكوا إذا أعوزهم الضحك.

وانك مذ أخذت نفسك بأن تكون كذلك قد توهمت بأنك أصبحت كذلك ، إذا من الواجب على الجميع أن يضحكوا لما تلقيه ، ويطربوا لما ترويه.

إنك توهمت ذلك ناسياً ، أو متناسياً أن شيئاً اسمه المجاملة هو الذي يحمل أولئك الأشخاص الذين ابتلاهم الدهر بصحبتك ، وساقتهم الأقدار إلى معرفتك يحملهم على الضحك ، أو على تكلف الضحك.

إنك نسيت ذلك الشيء الذي اسمه ((المجاملة)) فأوهمت نفسك بنجاحك فيما آخذت على نفسك القيام به ، وتعهدت لها بأن تؤديه معتقداً أنه وظيفتك ورسالتك وأنه سبب نجاحك وتفوقك وميزتك التي لا

يشركك فيها أحد من صحبك ، ولا يدانيك في أدائها مدانٍ من رفقائك !

إنك نسيت ذلك الشيء فاتخذت من مجاملة أصحابك لك ، واصطناعهم الضحك لأقوالك حافزاً يحفزك على مواصلة السير في طريقك التي سلكتها متوهماً أنها هي الطريق التي حفرتها الأقدار لسيرك ووضعتها لك ووضعتك لها طبيعة الحياة البشرية.

وإنك نسيت ذلك فتوهمت أنك قد نجحت – والنجاح يغري بالزيادة – فرحت تزيد الطين بلة ، ورحت تواصل طرح نكاتك الوهمية وراح أصدقائك – تبعاً لذلك – تزداد على الأيام الأعباء الملقاة على عواتقهم إزاء ذلك ، تلك الأعباء التي تفرضها المجاملة وتوجبها حقوق الصداقة.

إن الضغط – يا صاحبي – يولد الانفجار وإنني أرى انه قد زاد ضغطك على أصدقائك وإنني أخاف أن يولد ذلك الانفجار الساحق الماحق الذي يسحق سعادتك الوهمية ، ويمحق تلك الآمال الواسعة التي تعلقها على ظرفك الكاذب ، وخفة روحك التي مصدرها خفة عقلك.

رفقاً بنفسك – يا صاحبي – أولاً ، ثم رفقاً بأصدقائك تبعاً لذلك كيلا تفقد مجاملة أصدقائك ، ثم تفقد آمالك في نفسك بعد ذلك.

وإنك إن لم تفعل ذلك فسوف ينفد صبر أصدقائك ، وسوف ينفد رصيدك من السعادة الوهمية في أعمالك.

وسوف تسيء إلى الصداقة في شخصي وشخصك وأشخاص أصدقائك مع ذلك.

قال وقلت

قال : ألا ترى ما صنع بي فلان ؟ إنه قد وأخذني بما لم يؤاخذ به الآخرين.

فقلت له : إنه يقول : إنه فعل ما يأمره الواجب أن يفعل ، أنه يقول : إن هذا ما يأمره به ضميره ، هل تشك في أنه قد ظلمك؟

قال : نعم ، إنه ظلمني وهو لم يظلمني لأنه قد عاملني بما لا أستحق ، بل لأنه عاملني بما لم يعامل به الآخرين.

قلت : إذاً أنت لا تقول : أنه قد فعل معك ما لست مستحقاً له ؟

قال : إنه لم يفعل معي ما لم استحقه ، ولكنه لم يفعل معي مثل ما فعل مع الآخرين.

قلت : فمم التشكي إذاً ؟ إذا كان لما فعله معك مبرر قد أقررت به ، وقلت : إنه مبرر ؟

فأجابني بأن تشكيه كان من كون صاحبه يتجاوز الواجب الذي يقتضيه أن يعمل مع الناس بروح واحدة ، وأن ينظر إليهم نظرة واحدة دون تفريق.

قال : أما إذا عفا عن البعض ولم يعف عن الآخر مع أن الحق يعطيه ألا يعفو عن الجميع فإن قيامه بالحق يصبح ظلماً لا يطاق ، لأن المساواة في الظلم عدل ، وعدم المساواة في العدل ظلم.

قلت : إن صاحبك يقول : إنه سوف يطبق في المستقبل ما يأمره به الواجب على الجميع وأنه سوف يبدأ بك أنت !

قال : ولماذا يبدأ بي أنا بالذات دون غيري ، ولم يبدأ بفلان أو بفلان ؟

قلت : أوليس بالإمكان أن يقول غيرك مثل ما قلت : أن يقول ، إنه كان الواجب يقضي أن يبدأ بغيره فتكون النتيجة إذا ما أراد صاحبك أن يقوم بواجبه أن يغضب أحداً قد يكون غيرك ، وربما لا يكون غيرك ، بل ربما يكون أنت ؟

قال : ولو ، على كل حال ، أنا لا أرضى أن يبدأ بي أنا فيما لا أرضاه ولو عمل مع الآخرين قبلي مثل ما عمل معي لهان علي الأمر ، أما أن أكون أنا الذي يبدأ به فذلك ما لا أستطيع أن أجد له تفسيراً.

هذا ما دار بيني وبين أحدهم :

كان له رئيس ، وكان الرئيس رجلاً رقيقاً يصفح عن أخطاء موظفيه ، ويتحمل كثيراً من المسئولية التي يسئلون عنها هم ، كل ذلك لأجل أن يحوز رضاهم ويتجنب سخطهم ، ولكنه رأى أخيراً أن ذلك ليس الطريق الذي يوصل إلى ضبط العمل ، ويكون سبباً في رضاء المرؤوسين ، ثم في إتقان العمل ، ورضاء الموظفين عنه وعن العمل.

فأراد أن يغير من خطته ، وأن يسلك طريقاً غير طريقه السابق ، أراد أن يستعمل الحزم مع مرؤوسيه ، ولا يتحمل عنهم ما كان يتحمله قبل ذلك ، وأن يأخذهم بالنظام ، بما يمليه عليه واجبه بل صمم على ألا يحيد عن ذلك قيد شعرة.

وكان صاحبنا الذي جرت بيني وبينه هذه المحاورة ، هو أول شخص من مرؤوسيه أراد أن يعمل معه مثل ذلك العمل الحازم ، فلم يرض بذلك محتجاً بأنه لا يرضى أن يعمل معه ما لم يعمله مع زملائه قبل ذلك.

ولما قلت له : إنه يقول : إنه سوف يبدأ خطة جديدة ، قال : ولماذا يجعلني أنا الأول الذي يعاني خطته الجديدة ؟!

الواقع أن الخطأ كل الخطأ إنما يقع على عاتق ذلك الرجل الذي أراد أن يتساهل مع مرؤوسيه على حساب واجبه وواجب العمل الذي يرأسه ، ولو أنه عمل منذ البداية بما يوحيه إليه واجبه ، وبما يمليه عليه الحق لما أحتاج إلى كل ذلك !

لقد سبق له أن احسن إلى ذلك الشخص ولكن كونه هذه المرة قد شعر بأنه لا يحسن إليه قد غطى في نظره على جميع إحسانه السابق وإن كان في الحقيقة والواقع لم يسيء إليه.

إنه الآن بحاجة إلى من يشعر مرؤوسيه بأن ما يعمله بهم الآن ليست إساءة إليهم ولكنه إحسان ، وهو بحاجة أشد إلى من يشعرهم بأن ما فعله معهم في السابق ليس إحساناً ولكنه إساءة.

مرة ثانية نقول : إن الإحسان ربما كان سبباً للإساءة لأنه لو لم يحسن إليهم في السابق – على زعمهم – لما عدوا قيامه بالواجب بعد ذلك إساءة منه إليهم.

هؤلاء الأصدقاء .. أيضاً

إن قصتي مع الأصدقاء والصداقة قصة طويلة قديمة فيها كثير من العبر التي ينبغي أن أعتبر بها ، وكثير من التجارب التي لم أكن لأقلد فيها غيري لو لم أجربها بنفسي.

كنت فتى غريراً أضحك لجميع من يضحكون لي ، أضحك لهم من كل قلبي ، إذا ضحك سني ضحك قلبي ، ولم أكن قد تعلمت حينذاك ضحك الأسنان فقط ، فكان أصدقائي الذين يضحكون لي هم عندي المثل العليا في الوفاء ، أحزن لحزنهم وأفرح لفرحهم ، ،أظن أنهم كذلك يعملون لي كما أعمل لهم يضحكون لضحكي ، ويحزنون لحزني.

وكنت إذا قرأت شيئاً في الكتب عن ندرة الصديق ، أو عدم إخلاص الأصدقاء ، أو تخلي الإخوان في وقت الحاجة إليهم أقول في نفسي : لابد أن قائلي هذه الأقوال لم يحظوا بمثل ما حظيت به من أصدقاء أوفياء يبشون في وجوههم ويرونهم بريق أسنانهم في مناسبة وغير مناسبة ، وكنت لا أؤمن بقول القائل :

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغرل والعنقاء والخِلُّ الوَفِي

بل كنت أظنه قد حرم ما منحتني إياه الحظوظ الطيبة.

كان ذلك حينما كنت فتى لا أملك من الدنيا شيئاً غير لسان أطلقه في مدح أصدقائي هؤلاء ، وغير نفس طالما غمطتها حقها في مجلس رفيع ، أو موطيء سهل ، أو في كلمة طيبة لأحترم أصدقائي أولئك.

ومضى الزمان وجاء مع مضيه المنصب وإذا بأصدقائي يتغيرون قليلاً ، إذا بهم يلقونني كالعادة ، أما إذا خلوا إلى غيرهم فإنهم يطلقون فيَّ السنة حداداً.

الله ، الله ، إنهم كانوا لا يقولون فيَّ قبل ذلك إلا خيراً ، أذلك لأنهم كانوا لا يجدون فيَّ ما يحسدونني عليه ؟ أم يا ترى لماذا؟.

ومضى الزمان أيضاً ، ومضينا نسايره ، ولكنني قد كرست – والحق يقال – جزءاً من وقتي الثمين لدي لمراقبة أصدقائي هؤلاء ، فهم لا يفتئون ينتهزون الفرص في نشر كل ما يعلمون من نقائص ، وطي ما يعلمون من محاسن ، كانوا يفعلون ذلك فأعلم منهم ذلك ، واصمم على هجرانهم ، والتخلي عنهم ، أسامر الشاعر الذي قال البيتين السائرين الذي عدَّ الصديق الوفي ثالث المستحيلات.

ولكنهم يعرضون لي فيظهرون أمامي بمظهر الصديق المخلص وأنا أعلم أنهم ليسوا كما يزعمون ولكنني أذهب مع ذلك إلى العمل مثل عملهم فأظهر معهم بمظهر الصديق المخلص وإن كنت أعلم من نفسي – ولا أدري هل يعلمون هم مني مثل ما أعلم منهم وما أعلم من نفسي – غير ذلك ، ثم لا ألبث بعد مدة يسيرة إلا أن أغالط نفسي فأزعم أنهم أصدقائي الصادقون ، وأن ذلك الزعم الباطل بأنهم غير صادقين في صداقتهم ما هو إلا عارض من هواجس النفس الأمارة بالسوء وأن (ما مضى فات) وأن علي أن أقيس الناس بنفسي ، فإذا ما نسيت كل ما يسؤ مع مضي الوقت فلا بد أنهم أيضاً قد نسوا ذلك الذي هو كالزبد الذي هو قصير العمر الذي يذهب جفاء في مدة قصيرة.

فيعودون فيكررون المهزلة فأكرر كيل النعوت التي لا تخرج عن دائرة التغفيل والبلاهة لنفسي ولتفكيري : لماذا اتخذت هؤلاء الأصدقاء ؟ ولماذا لم أقاطعهم للمرة الثانية أو للمرة الثالثة ؟ ولماذا استمر في ترديد هذه المهازل التي ليس لها آخر ؟

أنهم لو كانوا كسائر الناس بالنسبة إليَّ لما غاظهم ما يسعدني ولما خسروني ، فكم في الأرض غيري من سعيد ومجدود ولكنهم لا يعلمون به كما يعلمون بي ، ولا يغارون منه كما يغارون مني.

واليوم ها قد كرر أحدهم المهزلة وكررت معه ما كنت افعله ، وها أنا الآن عازم في نفسي على قطع صلتي به لأنها صلة تفيده هو ولا استفيد منها ، إلا أن يعلم من عيوبي ما خفي عن غيره فيظهرها ، ويعمل من ذلك ستاراً دون ما يكون من محاسن يسترها.

فيا هل ترى أأستمر على عزمي في قطع هذه الصلة مع هذا الصديق غير الصادق ؟ أم أن هذه ليست إلا عادة تتكرر ؟.

اللهم اجعلني من الصادقين .!

الجود يفقر ...

نعم لقد صدق المتنبي حين قال :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والاحترام قتّال

أتريد يا صاحبي أن تكون (رجلاً) أي : فتى باللغة العربية الفصحى ؟

أولى بك - يا صاحبي - وأنت أنت أن لا تقول : نعم ، لأن للفتوة أو (المرجلة) كما تقول شروطاً لا أظنك بقادر على حملها ، أنها شروط ثقيلة لأنها عظيمة لأنها قد وضعها العظماء للعظماء :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

كنت أقول لأحد أصدقائي الذين يطمحون إلى الفتوة دائماً ، ولا يخرجون بطموحهم عن الدعوى ، ولكنهم لا يكتفون بدعواهم حتى يظنوا أنها حقيقة واقعة ، وأنهم لم يبق بينهم وبين أن يكونوا كغيرهم من الفتيان العظماء إلا أن يرفق الله بني آدم إلى الرجوع إلى الصواب ومن ثم إلى الإقرار بفضلهم ، بل وإلى أن يكرروا فيهم العبارات البراقة التي يكيلونها لأنفسهم بغير حساب.

كنت أقول لهذا الصديق مثل هذه الكلمات ، أريد أن أثنيه عن عزمه على السير في هذا الطريق الشائك الذي لا تقوى رجلاه على السير فيه ، وأقول له : إن أولى بك - يا صاحبي - أن ترجع عن العظمة الكلامية التي تزعم أنت أنها عظمة حقيقية منحها لك القدر ، وسلبها منك الناس.

أولى بك أن ترجع من أول الشوط قبل أن تقف في منتصف الطريق فلا تستطيع المضي ولا تستطيع الرجوع إلا وقد خسرت كل آمالك وأقوالك ، ولا أقول أعمالك بل أخشى عليك يا صاحبي أن تجعل تلك الكلمات البَّراقة التي خدعت بها نفسك تتحول بفعلك ، بفعلك أنت وحدك ، إلى كلمات سوداء داكنة يخلقها غيرك حينما يعرف حقيقة كلماتك ، ويعرف أن زقك كان منفوخاً ليس فيه ما يبل حلق ضمآن فلا يقف من ذلك موقف المتفرج بل لا بد له من أن يكيل لك الكلمات السوقية التي تجرح شعورك المرهف . وتحد من طموحك (المزعوم) ولا بد له من أن يكيل لنفسه مثل تلك الكلمات على اغتراره بك ، وعلى مسارية لك في غرورك ثم لا بد له من أن يعود إليك أيضاً فيكرر لك ثانياً- ولا أقول خيراً – ما قاله أولا.

كنت أقول له ذلك فيقابلني بكلمات الشك والارتياب ويسأل نفسه أأنا صادق في قولي هذا ؟ وهل أنا جاد في نصيحتي هذه ؟ أم أني حاسد له خائف من أن يرتفع عليَّ وعلى أصحابه الآخرين ؟

كان ينظر إليَّ بعين الريبة قائلاً : إنك – يا أخي – تحتقرني ، إنك لا تظنني أهلاً للقوة لأنك تعرفني صغيراً والمثل العامي يقول (من عرفك صغير حقرك كبير) ، ثم يمضي بعد ذلك ، يحدث أصحابه بذلك ، ويعلق عليه بقوله : إن جميع العباقرة والعظماء كانوا موضع السخرية من معاصريهم وأصحابهم في ألو أمرهم.

إن صديقي يحتقرني أو على الأصح لا يوافقني على قولي لأن ذلك لا يوافق هواه ، أنه يخالفني في ذلك على أساس شخصي ، إنه

يخالفني لأنه هو لا يستطيع الطموح ثم يقيس الناس على نفسه ، أن هذا هو السبب ليس إلا.

وتمضي الأيام تتسابق وتجر أذيالها على الماجريات تمحو بعضها وتترك بعضاً – عاجزة – لأيام غيرها لتمحوه ، وكان ممن محته أو على الأدق ذرت فوقه الرماد هذه المحاورات بيني وبين صديقي.

وجاءت مناسبة ضمتني وإياه في بعثة واحده إلى أحد البلدان المجاورة ، ووفدنا على أمير البلد وقام الأمير بواجبه نحونا – نحن اضيافه – كما تعود أن يقوم ، وخرج صاحبي يقول لي حينما أخذت اثني على هذا الأمير (المسكين) الذي ينفق أكثر من شطر دخله على (المرجلة) وفي سبيل حفظ مستوى ذكره وصيته وخوفه من أن ينزل في نفوس الناس عن منزلته الرفيعة ، أخذ صاحبي يقول :

إن أمرك – يا صديقي – عجيب كل العجب ، إنك تثني في مواضع لا يستحق فيها الثناء ، وتبخل بثنائك في مواضع وعلى أناس يستحقونه ، وإن من هذه المواضع التي منحت فيها ثنائك جزافاً ثنائك على هذا الأمير الذي ما زاد على أن بذل من ماله قليلاً من كثير ، وبخلك علي بالمدح وأنت بعد لم تجرِّبْ عليَّ بخلاً !

قلت له : سوف نرى – يا صاحبي – ما تأتي به الأيام.

ومرة أخرى نسي صاحبي ما حدث وتناسيته أنا حتى حدث ما كنت أتوقع فقد قدم أمير البلدة الذي أكرمنا ، وقام بواجب الضيافة لنا خير قيام قدم على بلدتنا فوفد أول ما وفد علي لأنه كان يعرفني قبل ذلك ، فقمت وفعلت معه ما يجب علي أن افعله ، آدبت له مأدبة كبيرة دعوة إليها جملة من أصحابه وجملة من أصحابي وكان ممن دعوتهم

صاحبي ذلك الذي قال لي – وهو يخفض صوته – أرجوك ، أرجوك يا صديقي ألا يعلم الأمير أنني في البلدة ، إنه إن علم بذلك فسوف يكلفني ذلك خسارة كبيرة ، سوف يكلفني ذلك أن أقيم له مأدبة غداء أو عشاء مناسبة وما هذه المأدبة – كما تعلم – على مثلي بالأمر الهين – إنك تعلم - يا صاحبي – أنني موظف رزقي مكتوب محسوب لست بغني حتى أُنفق من غير حساب.

فقلت له : يا صاحبي قد يكون لك ذلك فيعلم الأمير به من غيري ، فماذا يكون موقفك أنت منه وبالتالي من (المرجلة) والفتوة التي طالما تغنيت بها ، وفندت أرائي بسبب حلمك اللذيذ بها؟

فأجاب : نعم ، إنني كنت أتغنى بها ولكنني يا أخي قد ادخرت نقوداً قليلة ، فهل يصح في العقل والمنطق أن أنفقها مرة واحدة ؟

فقلت له : نعم ، يصح ، يصح لأنك لن تكون بذلتها بغير مقابل ، بل في مقابل حصولك على ضالتك المنشودة وهي اتصافك بالكرم والفتوة.

إن هذه يا صاحبي هي أولى مراتب الكرم ، وبعبارة تفهمها جيداً إنها الدرجة الأولى في سُلّم (المرجلة) كما تسميها أو (الفتوة) كما تسميها باللغة الفصحى فكيف لك برقي السُلم إذا عجزت عن تسلق الدرجة الأولى .

أما قلت لك - يا صاحبي – إن أولى بك أن لا تصعد بدعواك العريضة إلى الدرجة الأولى لكي تضطر إلى السقوط على أم رأسك بعد ذلك ؟

لأنك لا تستطيع مواصلة الرقي أو على الأقل الثبات في موضعك الذي تحتله بفضل دعاواك العريضة.

فأجابني قائلاً : لا ، لا – يا صديقي – لا تظن أني قد رجعت عن مبادئي التي كنت أرددها كثيراً بين أصحابي ، وأدافع عن اعتقادي فيها بكل ما أستطيعه من المدافعة ، ولكنني أخاف الفقر ، أخاف نفاد نقودي ، أخاف أن اضطر بعد ذلك للاستدانة !.

فقلت : نعم – يا صاحبي – إن ... الجود يفقر .....!

يا صديقي

الآن وقد برح الخفاء يا صديقي وظهر من أمرك ما كنت تظنه مكنوناً ، الآن فلتقل كل شيء إلا أن تقول : يا صديقي.

كنت تقول لي : يا صديقي وأقول لك يا صديقي وأنا أعلم من نفسي أنني صادق وأظن فيك انك مثلي صادق فاسعد بذلك كما يسعد الصديق بصديقه ، وكنت لا أريد منك أن تقدم لي برهاناً على أنك صادق لأن لدي في نفسي على صداقة الصديق لصديقه برهانا وأي برهان.

لدي برهان وأي برهان.

برهان مني ومن نفسي ولا يستطيع برهان أن يبلغ من النفس كما يبلغ هذا البرهان.

كنت اعلم أنني صادق في قولي لك يا صديقي وكنت أظن انك كذلك وكنت استبعد من نفسي أن لا أكون صادقاً وكنت أظن أنك كذلك ، وكدت أظن انه يستحيل أن تكون غير صادق في قولك يا صديقي لأنني كنت أظن في نفسي كذلك.

ولذلك فإن تلك الفراشات الخبيثة التي تصل إلى ذهني حاملة جراثيم القطيعة لا تلبث أن تتبخر في نار الحرارة الصادقة لتحمسي لصداقتك وهي تحمل جراثيم القطيعة ، وجراثيم القطيعة هي عدم صدقك في قولك يا صديقي ، وهي كذلك لأنني صادقتك لاعتقادي بأنك صادق في صداقتك.

ولكن تلك الفراشات الخبيثة لم تلبث أن كثر غزوها لراسي غير أنها لا تلبث أن تحترق بعد ذلك.

ولكن آه ! لقد اكتسبتْ تلك الفراشات صلابة ومتانة ولقد اكتسبت كثرة في السواد.

آه ، إن حرارة الصداقة في شعوري لم تقو على أن تجعلها تتبخر.

لأنها أصبحت متينة كثيرة ، ولقد ارتدت رداء الحقيقة وهو الرداء الوحيد الذي يقيها من حرارة نار الصداقة في شعوري فلا تحترق.

ورحت تحاول أن تحيل تلك الفراشات في ذهني إلى فراشات خيالية : إلى أنها من صنع الوهم ومن وحي الخيال.

ولنت في يدك وأصغيت إلى قولك لأنه لا تزال في شعوري بقية من حسن الظن فيك لم تجس خلالها تلك الفراشات الخبيثة ، ولكن الحقيقة كانت أسرع من ذلك.

لقد انقلبت تلك الفراشات إلى سحب تحمل سيول الحقيقة ، لقد أغرقت سيول الحقيقة تلك الحرارة الصادقة الكاذبة.

أغرقتها لأنها كانت لم تشعلها نار الحقيقة.

وفي شعوري الآن رماد تلك الصداقة الهامد.

يصيح لي ويلح.

لأقول لك :

بعد أن برح الخفاء وظهر من أمرك ما كنت تظنه مكنوناً.

الآن فلتقل كل شيء إلا أن تقول : يا صديقي.

مركب النقص

تقل يا صاحبي إن الناس يجحدون معروفك عليهم ، ويغمطونك حقك في مجازاة إحسانك بالإحسان ويقلبون لك ظهر المجن ويتنكرون لك إذا ما نابتك نائبة من نوائب الزمان ، وتتعى بعد ذلك في بني الإنسان الطبع السليم والخلق الطيب ، ثم تدلل على ذلك بحكايتك مع فلان الذي كنت قد أقرضته ستة دنانير واشتريت له كتباً بستة دنانير وأهديت عليه – بناء على طلبه – هدية تساوي ثمانية دنانير ولما جئت تطلب إليه أن يبيعك كتاباً كان قد أعلن عزمه على بيعه بثمن محدود تقدمت أنت لشرائه بهذا الثمن الذي حدده ولكن النقود لم تكن في جيبك فلم يكن من صاحبك هذا إلا أن رفض أن يعطيك هذا الكتاب إلا إذا قدمت قبله النقود اللازمة التي تبلغ ستة دنانير فقط ، أي اقل من ثلث النقود التي منحتها صاحبك هذا ، واحتلت لهذا المبلغ بمختلف الحيل.

ولم يكن هذا فحسب بل تقول : إنه فعل فعلته النكراء بوقاحة وبدون أن يغض طرفه أو يبدو عليه أنه تأثر لذلك اقل التأثر ، أو حتى لم يلق له بالاً ، مع أنه قد بلغ منك مبلغاً عظيماً جعلك تتعى على بني آدم الخلق الطيب والطبع السليم وتردد كلامك هذا بكل أسف وحرارة.

وتقول : غاض الوفاء من الناس وذهبت المروءة مع الأولين ثم تمعن في رأيك المتشائم في الناس فتقول إنهم لا يكتفون بنكران الجميل وإنكار المعروف مع من يسدي إليهم معروفاً أو يصنع لديهم جميلاً حتى يعادوه في مقابل ذلك !

ثم تكرر ذكر ما صنع فلان وهو الذي أحسنت إليه – على حد قولك – وأكرمته ثم طلبت منه – تواضعاً منك – أن يقرضك ستة دنانير مع أن في ذمته لك أضعافها ثلاث مرات.

ثم سألتك بعد ما قصصت عليَّ كل ذلك بعبارات تقطر أسى وأسف ، تزعم أنت أن هذا الأسى وذلك الأسف ليس على ما فاتك من دريهمات ضاعت في بيداء نكران المعروف ومن شخص خيب ظنك فيما بنيت على شخصه من آمال بعاد.

سألتك بعد ذلك : هل أنت الذي بدأت ذلك الشخص الناكر للجميل فيما تزعم بمعروفك الذي لم يعرف قدره ؟

وهل أنت الذي بدأته بأن قلت له : إني أتشرف بإقراضك ستة دنانير ؟.

وهل اشتريت له ذلك الكتاب بناء على طلبه أم سمعته يتمنى شراءه والحصول عليه ، فما كان منك إلا أن سارعت إلى شرائه بستة دنانير زدت على الجميع بأن أهديت له تلك الهدية التي تقول أنها تساوي ثمانية دنانير ؟.

سألتك هل بدأته بكل هذا المعروف ؟ أم هو الذي سألك أن تؤديه إليه ؟ أجبتني على ذلك بأنك أنت الذي بدأ ، أنت الذي سارعت على بذل معروفك له.

إذاً صاحبك هذا الذي ترميه بثالثة الأثافي له كبير العذر إذا ما قلب لك ظهر المجن – على حد تعبيرك – وتنمر لمعروفك ، ذلك المعروف الذي جعلت تدل به عليه.

إنك يا صاحبي أحسست بمركب النقص في نفسك عن ذاك الصاحب – فيما تزعم – الذي أنكر معروفك فأردت بهديتك تلك أن تسد ذلك النقص عنه بتلك الهدية ، وما صاحبك بالذي ينطلي عليه الخداع ، ولا بالذي تنفع لديه الزلفى ، لأنه يا صاحبي لا بد يكون أحتقرك ، إذا كان على ما زعمت بأنه قد أحتقرك لا بد انه قد احتقرك عن عقيدة عالماً بالنقص الذي فيك والذي تعلمه أنت من نفسك ، وتريد أن تستره لديه بتلك الهدية التي أهديت.

ولذلك فهو لم يسألك هدية ، ولم تشترط عليه عند إهدائه تلك الهدية أن تكون ضريبة لاحترامه إياك وتقديره لك ولسد تلك الفرجة التي تحسها بين ما يجب في نظرك أن يحلك من نفسه وبين ما يجب في الواقع وبين ما يحلك هو في نفسه من نفسه.

إنك أخفقت يا صاحبي في معالجة النقص في نفسك بمثل تلك الأمور.

إن معالجتك لمركب النقص الذي تحسه في نفسك لا يكون بتملق الناس وإهدائهم ، وطلبهم أن يقدروك ، وان يكرموك ، وأن يرقوك إلى منزلة لست أهلاً لها ، وإنما تستشرف إليها وأنت باستشرافك إليها وتطلعك إلى التربع في بحبوحتها إنما تطلب محالاً وتطلب من أولئك النفر من الناس الذي تتملقهم بأن يرفعوك إليها ، تطلب منهم أن يكونوا منافقين ظالمين للحقيقة والواقع مجانبين للصواب.

وإنك بذلك تكون من دعاة النفاق والممالقة حتى ولو كنت تعلم منهم ذلك وتعلم أن من تطلب منهم ينافقونك وينزلون على رغبتك.

وإن ما فعلته يا صاحبي ليس هو الطريق الموصل إلى إحلالك بالمنزلة الرفيعة التي تطمح نفسك إلى بلوغها ، وإن ذلك ليس بمغن عنك شيئاً ولكنه إذا ما تحقق ليس غير ذر للرماد في عين الحقيقة وغير ضرب من ضروب النفاق.

إن إجلال نفسك يا صاحبي وإكرامها وإعزازها إنما يكون برجوعها إليها ، إليها هي ، إلى نفسك نفسها إن صح هذا التعبير ، إلى نفسك بأن تهذبها بملازمة الأخلاق الفاضلة ، والخلال الحميدة ، وأن تحملها على الجد والإجتهاد في اكتساب الفضائل ، وتجنب الرذائل وأن تراجع سيرتك وحياتك ، ومدخلك ومخرجك فتنفي من ذلك كل ما يجانف الشرف ويجانب الفضيلة ، وكل ما يقرب من الرذيلة أو يوصل إليها ، وان تتحلى بالخلال التي تحلى بها الرجال الأفذاذ الذين انعقدت الألسنة على مدحهم ، واجتمعت القلوب على محبتهم ، وإكرامهم وإعزازهم ، وأن تحمل نفسك على كل ذلك.

وبذلك ولا شيء غير ذلك تنتزع الإكرام الذي تصبو إليه نفسك من الناس انتزاعاً وبذلك يجل الناس قدرك برغمهم ، سوف يجلون فيك إذا كانوا يمانعون في إجلال قدرك أنت وما هم بمانعين تلك الأخلاق الفاضلة والخلال المحمودة.

إن الإجلال والتقدير لا ينال بالاستجداء ولكنه ينال بالخلال المحمودة والصفات العالية ، وإن ذلك الإجلال والتقدير الذي يباع بدريهمات أو يشتري بغرض من الأغراض لهو إجلال وتقدير زائف بل هو ضرب من ضروب النفاق.

وإن الإجلال والتقدير الذي يشتري بالإجلال والتقدير لهو أيضاً من ضروب النفاق ولهو مغالطة للنفس وهروب من الواقع الذي لا يسر إلا الخيال بهذا الشكل الممقوت الجاري على ذلك المبدأ المعروف ((خذ وأعط)) وإنني لأعتقد أنك لا ترضى لنفسك بذلك ولا يرضى أي شخص ذي نفس كبيرة بتلك المغالطة.

الصديق الصادق

أو الأولى أن يكون العنوان هكذا ((الصديق المصدوق)) بالبناء للمفعول.

إن الأصدقاء الذين يضافون إلى شيء من الأشياء مثل صديق المدرسة وصديق البيت ، وصديق العمل وصديق المصلحة المشتركة أو صديق دفع المضرة المشتركة كثيرون وكثيرون جداً ، لا أظن أن أحداً من الناس كائناً من كان مهما كانت طبقته وضيعة أو رفيعة يخلو منهم وليس في هذا الوجود إنسان يحس إحساساً مفرداً لا يشترك معه في إحساسه أحد ولو من بعض الجهات ، اللهم إلا نادراً والنادر لا حكم له ولا يقاس عليه.

وكما أن للحياة نواحي كثيرة متشعبة فكذلك لا بد للإنسان من أصدقاء كثيرين متشعبين أو على الأصح متشعبة صداقتهم.

وما دمنا حتى الآن لم نقف على تعريف صحيح للصديق ، ووصف جامع مانع كما يقول الأصوليون ، أي لا يدع صديقاً إلا دخل فيه ولا يدع صديقاً يخرج منه ، فإن لنا أن نقول إن الأصدقاء كثيرون ولو كنا نعني بذلك الأصدقاء المقيدين بشيء ، فهكذا يسميهم الناس وهكذا تعارف عليهم الناس.

على أن هناك أناساً شذاذاً يأبون أن يسموا هؤلاء الأصدقاء المقيدين أصدقاء ، بل يسمونهم معارف أو أبناء جنس أو بلد ومالنا ولهؤلاء الشذاذ ما دام الناس يسمونهم أصدقاء ؟.

وبديهي من لفظة صديق (كذا) المضاف إلى (كذا) أنه إنما صادقك لأجل هذا الشيء الذي أضيفت صداقتكما إليه ، وبديهي أيضاً

أن من صادقك لشيء عاداك لفقده ، أو بعبارة أخرى ترك صداقتك إذا فقده.

إذاً الصديق الصادق أو المصدوق كما قلت هو ليس هؤلاء الأصدقاء المقيدين ، فمن هو الصديق الصادق؟

هو صديق الروح ، هو صديق النفس ، هو صديق الجبلّة ، الصديق الذي لا يفصم صداقته تباعد في الأهداف أو فوارق في المجتمع لأنه صديق روحي لا حيلة لك ولا له ولا سعي في تلك الصداقة.

الصديق الروحي هو الذي تملكك صداقته ، ولا تملكها لأنها شيء فوق طاقتك ، وفوق نفوذك ، لأنها شيء روحي يستمد قوته من الروح ، وهذه الصداقة ليس في استطاعتك ولا في استطاعته أن تفصما عراها أو تقفا في طريقها وإن خلافكما فيما بينكما ومحاولتكما فصم عرى هذه الصداقة لهو مثل خلاف الأم وولدها مثل غضب الأم إذا ما حاولت أن تنتقم من ولدها فتقسو عليه ثم لا تلبث أن تردها الفطرة إلى صوابها أو خطئه في الحنان عليه وتضميد جراح سخطه عليها.

إذا كان لك صديق مثل هذا الصديق الموصوف : الصديق الصادق أو المصدوق على الأصح لأنه نفسه لا حيلة له بهذه الصداقة فاستمسك ما استطعت بحبل صداقته.

أو فلا تتمسك فإنها لا بد أن تضع له الأوكار في دماغك وروحك رغم انفك وأنف المنطق وما عليك لكي تزيدها توطيداً وتزيد أقدامها رسوخاً إلا أن تعمل ما تعمله لجلب الأصدقاء المقيدين.

أما إذا لم ترقك هذه الصداقة أو لم يرقك هذا الصديق الصادق فليس في يدك غير أن تحاول تهدئتها وذر الرماد في عين هذا الصديق

لكي ينسى أو يتناسى صداقته لك ولو لوقت قصير وليس ذلك النسيان أو التناسي إلا بمثابة الإغفاءة للإنسان الذي يصحو بعدها من نومه أكثر نشاطاً وأعظم قوة.

أقول هذه الكلمات بمناسبة حادثة اليوم ، كان لي صديق عرفته منذ ثلاث سنوات ومنذ عرفته اكتشفنا جميعاً أننا أصدقاء بدون أن نعرف ذلك قبل ذلك ، ولم تحتج صداقتنا بسبب ذلك إلى كثير رعاية أو عناية أو ملازمة طويلة بل كان أولها جلسة عارضة في مجلس حافل ثم لقاء عابر كمئات المرات التي يلتقي فيها اثنان من الناس فيما يظهر للناس ولكن فيما يبطن يقطن السر إذ كنا نحاول أن نفترق كما يفترق الناس ولكننا لا نستطيع بل نفترق كما يفترق الصديقان الحميمان القديمان يفكر كل منها في الآخر : يحس إحساسه ، ويتألم لألمه ، ويفرح لفرحه.

وكان بيننا فوارق اجتماعية أو على الأصح حدود فصلها المجتمع بأسلاك شائكة ، ولكن صداقتنا هذه استطاعت أن تجتاح هذه الأسلاك الشائكة غير آبهة.

وكنت أنا لأجل هذه الفوارق لا أحب صداقته أو لا أحب أن يعلم الناس أنه صديق لي فكنت أتحاشى الجلوس معه وأسد الذرائع الموصلة إليه ، ولكن ذلك – كما قلت – لم يفد شيئاً غير أن يزيد هذه الصداقة صدقاً وتمكيناً.

يا صديقي

لم اكن أعرفك ولم أكن أظن أنك سوف تصبح لي صديقاً.

ولم تكن تعرفني ولم تكن تظن أنني سوف اصبح لك صديقاً.

لم نكن نظن أننا سوف نصبح صديقين.

ولا أدري ما الذي جعلك لي صديقاً وجعلني لك صديقاً وجعلنا صديقين.

ولكننا عرفنا أننا صديقان فقلت لي : يا صديقي ، وقلت لك يا صديقي وكلنا صادق في قوله ومخلص لما يقول.

كان ذلك أيام الصبا ، وزمان خلو الفؤاد ، وكنا نعيش في دنيا محدودة من واقعنا الجميل ، فكنت أظنك أنت الأصدقاء كلهم وكنت تظنني كذلك.

والدنيا بما في الدنيا من صنوف الرغبات والرهبات والآمال والآلام : الدنيا التي تفرق بين الصديقين ، ويفترق من أجلها الصديقان لا نعرف منها شيئاً ولا نعرف أننا سوف نعرف منها شيئاً وأن ذلك الشيء هو الذي سيكون السبب في أننا لا تدوم صداقتنا وأننا لا نظل كما كنا صديقين.

وتجاوزنا أرض الصبا ، ووصلنا إلى أرض الرجولة ، إلى الدنيا المفعمة بالآمال والآلام.

وكان هدفنا واحداً فكنا نتساند ونتعاضد لكي نصل جميعاً إلى ذلك الهدف المنشود كما يفعل كل من يسعون إلى هدف واحد.

ولم يحدث بيني وبينك خلال ذلك إلا كل ما يوطد الاتحاد في العمل وكل ما يعين على مشقة السير في الطريق.

وقربنا من الهدف المشترك ، أو هكذا خيل إلينا.

وكنا نعتقد أو كنت أعتقد وأعتقد أنك مثلي تعتقد أننا نسير في الطريق متساندين.

ولكن الناس بدؤوا يحاولون أن يجعلونا لا نعتقد ذلك ، وبدأت اسمع أنني مخطئ في اعتقادي أننا نسير متساويين وأنني كما زعموا أسير في الطريق وأسبقك خطوة أو خطوتين.

وتركت الناس وتركت ما يقول الناس ورجعت إليك لأخذ بيدك لنسير كما كنا متساندين.

ولكنني فوجئت بنفورك ، فوجئت بأنك لو نطقت تتظلم وتظن أنني قد ظلمتك ، وغمطتك حقك حينما بدأت تسمع قول الناس إنني قد تقدمتك خطوة أو خطوتين.

ورحت تتوهم أنني أنا الذي تعمدت أن تكون كذلك بل رحت تتوهم أنني قد حاولت أن أجعلك تتقهقر خطوة أو خطوتين.

بل رحت تتوهم أن تلك الخطوة أو تينك الخطوتين التي قال الناس – إن خطأً وإن صواباً – أنني خطوتهما قبلك رحت تتوهم أنهما منك كانتا مختلستين.

رحت تتوهم أن كل ما أحرزه من نجاح مقتطع من نجاحك ، وأن جميع ما أصيبه من توفيق إنما هو على قلته مأخوذ من توفيقك فرحت تنظر إلى بعد ذلك نظرك إلى غريمك.

رحت تنظر إلي نظرة من سلبك حقك وأعتدي على ما هو لك.

وما كان مني شيء من ذلك ، وإنني لحريص على تقدمك ونجاحك حرصي على تقدمي ونجاحي ، وذلك لكي نسير معاً متعاضدين.

وقد يهون ذلك لو لم تبدأ بعد ذلك تخترع النعوت التي ينفر منها مثلي ومثلك ، تخترعها لتلصقها أمام أسمي وأنت تعلم في نفسك كما أعلم أنا انك تظلمني لأنني لم افعل ما يستوجب منك ذلك.

وأنك لتستمر على ذلك وأنني لا أحاول أن أجازيك على فعالك لأنك تستحق مني الشفقة لأن لك من نفسك في نفسك من ينتقم لي على الرغم مني ، ينتقم منك لأنك تظلمني فتظلم نفسك تبعاً لذلك.

وفي بعض الساعات القلائل ، وفي لمحات تستيقظ فيها في فؤادك صداقتك القديمة لصديقك القديم ، تسرع لتكفر عن ذنبك بلسانك ، وما أنت بحاجة إلى ذلك ، وما صديقك كذلك بحاجة إلى ذلك ، ولكنك بحاجة على أن ترجع إلى نفسك لتهذب نفسك.

وأن ترجع إلى عقلك لتحكم عقلك ، وان ترجع إلى المنطق لكي تسمع المنطق يناديك بأنك ظالم لي أنا صديقك وأنك بحاجة بعد كل ذلك إلى أن تتبع ما يمليه عليك أولئك ، ويومئذ سوف نبعث من جديد أخوين نسير متجاريين كما كنا قبل ذلك.

كما كنا صديقين !!!.

مَغْرُورٌ أَنْتَ !

مغرور أنت يا صاحبي فما شعرت برضاك عني حتى أشعر بغضبك ، لم اشعر بك أنت حتى أشعر برضاك وغضبك ، لم اشعر بك أنت لأنني لم اشعر برضاك وغضبك ، لم اشعر بك أنت لأنني لم أشعر برضاك ولا بغضبك ولا بمنفعتك ولا بمضرتك ، لم اشعر بمنفعتك ولا بمضرتك ، وهل الشعور بالوجود غير الشعور بهما ؟

يا صاحبي إنك لن تشعرني بغضبك عندما تغضب عليَّ لأنني لا أشعر إلا بغضب من شعرت برضاه ولكنك بذلك يا صاحبي لتغالط نفسك وتتصور غير الحقيقة عندما تزعم أنني اشعر بغضبك وأتألم لعدم رضاك.

ولكن ، لا بأس.

وماذا يضير ما دمت تغالط نفسك وتعيش معها في دنيا من الأحلام ..؟

لتدم غضبان وليستمر غضبك وليتزايد أضعافاً مضاعفة ما دام ذلك ينفعك ولا يضرني ، ولكن !

حذار منْ أن تزعم لغير نفسك أنك بذلك تشعرني بغضبك ، وتحملني على أن أطلب منك رضاك.

إن من واجبك الإنساني عليَّ أن أوهمك بأنني قد شعرت بغضبك ، وأنني بسبيل أن أطلب رضاك ولو كنت بذلك أخادع نفسي وأخادعك ، ولكنني لن افعل لأنني لا أحب أن أخادعك فهيا لتخادع نفسك ولتوهمها بأنني أشعر بغضبك وأطلب رضاك.

لا أدري لماذا غضبت حين زعمت أنك غضبت ، لأنني لفرط جهلي بك لا أفرق بين غضبك ورضاك.

إن من الواجب عليك أن ترضى عني لأنني كنت سبباً في إسعادك حيناً حينما زعمت لنفسك أنني اشعر بغضبك واطلب رضاك.

سوف لا أطلب رضاك لأنني لا أحب أن أُرَبِّي في نفسك خصلة الكبر التي أوحت إليك بأنني سوف أطلب رضاك ، ولولا ذلك لما ترددتُ – رغم ذلك – في أن أطلب رضاك.

يا صديقي

وكنت وإياك صديقين.

لا ندري الأسباب التي دعتنا إلى أن نكون كذلك إلا أنك لقيتني ولقيتك وعرفتني وعرفتك فأصبحنا صديقين.

لا ، ليس ذلك هو الذي جعلنا صديقين فما اكثر ما لقيتُ غيرك وما أكثر ما لقيتَ غيري وما أكثر ما عرفتُ غيرك وما أكثر ما عرفتَ أنت غيري ، ولكن لم ألق ولم أعرف أحداً ولم تلق ولم تلق أحداً ، ثم كان لي وكان لك صديقاً وأصبحت أنا وهو وأصبحت أنت وهو صديقين ، فكأننا بتعارفنا قد اكتشفنا شيئاً أزلياً قديماً ، اكتشفنا أننا صديقان.

نعم ، كأننا بذلك اكتشفنا شيئاً أزلياً فمن المحال أن يجعلنا لقاءنا العابر وتعارفنا السائر صديقين.

إن اللقاء وحده لا يصنع التعارف وإن التعارف وحده لا يصنع الصداقة ، ولذا فإنه من المحال أن يكون لقاءنا وتعارفنا قد جعلنا صديقين.

نحن صديقان ولا ندري متى أصبحنا صديقين.

تقول لي – وأنت صادق في قولك – : يا صديقي وأقول لك وأنا كذلك صادق فيما أقوله يا صديقي ، وتظن أنت وأظن أنا نظن معاً أننا سنظل هكذا ، تقول : يا صديقي وسنظل هكذا – إلى آخر الدهر – صديقين.

ونختلف فيما بيننا كما يختلف الناس ويبلغ بنا الخلاف إلى أن تظن ويظن كل من رآنا نختلف أننا لن نقول لبعضنا يا صديقي وأننا لن نظل صديقين.

ولكن ما أسرع ما يذهب ذلك . او ما أسرع ما نعود كما كنا قبل ذلك ، كما كنا صديقين.

أنا صديقك يا صديقي ، وأنت صديقي وسنظل هكذا إلى آخر دهرنا صديقين.

أنا صديقك وأنت صديقي لأننا قد اكتشفنا أننا بغير سعي منا قد خلقنا صديقين ، وسوف نظل هكذا بغير سعي منا صديقين.

فحذار يا صديقي وسوف أقول لنفسي : حذار من أن تزعم أننا لسنا صديقين.

عذاب

قال الصديق الأول لصاحبه – وكأنه يتذكر شيئاً - : إن لدي خبراً مهماً سوف أُنبئك به بعد حين ، أنه خبر مهم ، وهو يهمني ويهمك ، اكثر مما يهم غيرنا ، عسى الا أنساه ، أرجوا أن تذكرني بعد حين بعد أن افرغ من عملي هذا ، بعد أن أفرغ من حديثي مع فلان.

وبعد قليل ، وبعد أن فرغ من حديثه قال له صاحبه الصديق الثاني : هيا يا صديقي لتقل ما وعدتني به ، أنا الآن أتحرق انتظاراً لما تفوه به ، أسرع ، أسرع يا صديقي.

قال الصديق الأول وقد بدت عليه إمارات التأثر من حديثه مع ذلك الرجل (فلان) الذي كان يتحدث معه منذ هنيهة : هاه ، هاه ، ماذا تقول ؟

قال الصديق الثاني : ماذا أقول ؟ يا عجباً ، هل تتباله عليَّ ؟ كفى ما اصطليتُ به من نار الانتظار ، أسرع ، أسرع ، أخبرني .

قال الصديق الأول : وعماذا أخبرك ؟ عن أي شيء ؟

قال الصديق الثاني : - وهو يحاول ضبط أعصابه – : عما سوف تقوله لي ، عما لمحت أنه خبر مهم بالنسبة لي ولك !

قال الصديق الأول : أمر مهم ؟ خبر مهم بالنسبة لي ولك ؟ ما هو هذا الخبر المهم ؟ هل أنت متأكد من أنني قلت لك ذلك ؟.

أه ، نعم ، إنني قلت لك ذلك ولكن – مع الأسف – لست أدري ما هو ذلك الأمر الآن ، أنني أنسيته !

قال الصديق الثاني محتداً : لماذا قلت إنك ستخبرني بأمر مهم ؟ لماذا لم تقل : إنني سوف أعذبك .

لماذا لم تقل لي إنك ستتركني أتحرق شوقاً إلى معرفة ما زعمته مهماً لي ولك ، ولا شيء غير ذلك ؟

حقاً ، لقد عذبتني - يا صديقي - بعذاب الانتظار ، ثم بعذاب الحرمان !.

قال الرجل الثالث الذي حضر مجلسهما : الحق معك أيها الصديق الثاني ، نعم ، لقد عذبك صاحبك حينما تركك تنتظر ، ثم تركك بعد ذلك الانتظار تحترق بنار الحرمان.

الواقع أن الإنسان يجب عليه أن يجعل مغلاقاً على شفيته لا يفتحه إلا إذا وثق بأنه سيفتح على ما يسر أصحابه ، أو ما له ظل وجدوى يلمسونها.

وأنا أقول : إلا على ما له ظل وجدوى ولست اعني بالجدوى ما فهم الناس أنه جدوى مادية ، ولكن ماله أثر نافع ، وكل شيء له اثر فالكلام فيه لم يضع سدى ، أما إذا كان ذلك الكلام ليس له اثر إلاّ الحرمان والعذاب : حرمان السامع وعذابه فإن الأفضل أن يغلف على الفم دونه بغلاف وثيق.

يا صديقي

ما لهذا وجدت الصداقة.

وما هكذا أردنا أن تكون الصداقة.

وما بمثل هذا سمعنا في الصداقة.

ليتنا لم نتصادق ، ولم نعرف الصداقة ، لأننا أردنا أن نسعد بالصداقة ، ولكننا – مع الأسف – شقينا بالصداقة.

أردنا أن نكون أصدقاء وأن نسعد بالصداقة.

كما سمعنا عن الصداقة.

فبذلنا كل شيء في سبيل الصداقة.

حتى أصبحنا صديقين ، ولكن فقط في لغة الصداقة.

أصبحنا صديقين في لغة الصداقة علينا واجب الصداقة وعلينا حقوق الصداقة.

وعلينا لكي نظل صديقين كما تقضي لغة الصداقة ألا نخل بشرط من شروط الصداقة.

ولم نكن نخل بشروط الصداقة.

فكنا نتخير أغلى الكلمات ، وأصفى العبارات عندما نلتقي ، وكنا نتناول أحر الرسائل الطافحة بكلمات الصداقة.

ولكننا – مع الأسف – لم نملك غير ذلك ، وكنا نؤمن في قرارة أنفسنا أنه ليس كذلك تكون الصداقة.

نعم ، ليس كذلك تكون الصداقة.

ابتسامة مغتصبة ، وعبارات غالية نادرة ، ولكنها عبارات جوفاء ليس في باطنها من الحقيقة شيء ، لم نستفد منها إلا أننا

اكتشفنا أننا نستطيع التمثيل ، وبالأخص تمثيل دور الأصدقاء الذين اجتمعت فيهم شروط الصداقة.

وعندما يخلو أحدنا إلى نفسه يضحك من هذه الصداقة ويقهقه من تلك الصداقة.

ولكنه لا يظهر لصاحبه ذلك حرصاً على واجب الصداقة.

نعم ، يا صديقي ما لهذا وُجِدَتْ الصداقة.

وما هكذا تكون الصداقة.

وما بمثل هذا سمعنا في الصداقة.

وما هكذا إرادتنا أن تكون الصداقة.

أيها المتكبر !

أيها المتكبر ، لا أقول رفقاً بالأرض يا صاحبي.

الأرض التي تمايلت عليها في مشيتك ، وتخايلت من فوقها في برديك ، وظننت أن مفاتيحها بين يديك ، ورحت تثقل عليها الخطى حين دستها بقدميك ، وترفع رأسك إلى السماء حتى لا تكاد تنظر إلى الأرض.

أنسيت أنك من الأرض ، عشت منها ، وإلى الأرض تعود ؟

لا أقول : رفقاً بالأرض ، فالأرض – يا رجل – لا يضيرها ذلك ، ولا يعنيها أن ترى الكثير من أمثالك.

لأنها الأرض التي مشى فوق ظهرها آدم أبوك ، ثم أبناؤه وأحفاده ، إلى يوم أن وصل الدور إليك.

هي الأرض التي رأت من بني هؤلاء وأحفادهم كثيرين من أمثالك ، تاهوا عجباً بأنفسهم كما تهت بنفسك ، ونظروا إلى الأرض من السماء احتقاراً للأرض ومن على الأرض.

ولكن !

إلى أين كان مصيرهم ؟

إلى الأرض – يا صاحبي .

إلى تلك التي خطروا فوقها تيهاً ، وتمايلوا على ظهرها عجباً.

أين جباههم التي لا ترى الأرض إلا من السماء ؟

إنها في جوف الأرض ، وفي ذمة الأرض ، وفي ذرات الأرض !.

حتى جَوُّ الأرض لم يأخذ منهم الأمثل ما أخذوا منه !.

أخذوا نسيما ، وأخذ منهم رائحة ظلت تائهة في خِضَمِّ النسيم زماناً ثم تلاشت.

ولا أقول : رفقاً بالناس الذين هم في عينيك أصغر من البعوض وأحقر من الذباب.

فلن يضيرهم ذلك ، ولن ينكمشوا حتى يصبحوا أصغر من البعوض ولن يذلوا حتى يصيروا أحقر من الذباب.

لا أقول : رفقاً بالناس الذين ارتفعت في نفسك عن مرتبتهم حتى أصبحت تتخيل انك تنظر إليهم حينما تنظر إلى رجليك ـ أو أدنى مكاناً من رجليك ،وأصبحت تحاول أن تحتكر النعوت المُحَبَّبة إلى نفوس الناس وتغدق النعوت المكروهة على الناس.

لا أقول ذلك ، لأنك أنت أنت في أعين الناس ، وأنت أنت في تقديرهم إياك.

أنت أنت فَرد من آحاد الناس ولكنك فرد مسكين قد أصابك مرض العُجْب ، واستولى عليك جنون الكبْر ، ورفعك الشيطان في نفسك ووضعتك الحقيقة في عيون الناس.

أنت أنت في عيون الناس ، لا تزيد على أن تكون فرداً ، ولكن لا كالأفراد بل فرد نفع غيره بقدر ما ضر نفسه.

لقد أصبحت – يا صاحبي – بين الناس مثلاً حياً للإنسان حينما يرفعه الشيطان في نفسه ، وتضعه الحقيقة في نفوس الناس.

لقد غدوت وكأنك غدوت مُوكلاً بأن تبرز للناس صفات الكِبْر والعُجْب والغرور حتى يعرفها الناس لا من بطون الكتب ولا من أفواه الحكماء ولكن من الواقع ومن الحياة.

منك أنت : من نفسك ومن كِبْرك ومن عُجْبك وغرورك.

أنت – يا رجل – وضعت نفسك في أعين الناس بقدر ما رفعت نفسك في عينك ، وأنت لذاك نفعت غيرك بقدر ما جلبت الضر على نفسك ، حتى أصبحت عبرة للمعتبر ، وعظة للمتعظ ، ولذلك فأنا لا أقول : رفقاً بالناس.

ولكنني أقول : رفقاً بنفسك.

رفقاً بنفسك التي حملتها من أثقال الكبر والغرور ما تنؤ بحمله الجبال ، وقيدتها بقيود من العظمة وهمية.

وهمية لأنه لا وجود لها في غير نفسك ، ولا يحس بها أحد غيرك ، لأنك وضعت نفسك في مرتبة أعلى من مرتبة الناس ، عندما ظننتها كذلك.

أخذت نفسك بعد ذلك بما يأخذ به العظيم نفسه من شروط العظمة الحقيقية ، ومظاهر التعاظم ، فزدت بذلك على نفسك أثقالاً مع أثقال.

لقد توهمت نفسك عظيماً ، ورحت تحاول أن تجعل الناس يعاملونك بما يعاملون به كل عظيم غيرك وما هم بفاعلين ، ولذلك فأنت وهم من أجل ذلك في جدال ثم جدال.

لقد توهمت نفسك عظيماً ورحت تحاول أن تجعل القدر يعترف لك بذلك والزمان يمشي على منوالك ، ولكن أين ذلك ، إن ذاك من المحال.

وليتك عرفت ذلك ، وليته خَفَّفَ من غلوائك ، وقصر من كبريائك ولكن زادك ذلك غروراً على غرور ، وضلالاً إلى ضلال.

وعُدْت تعلل نفسك وتعزي فؤادك ، وترضي كبرياءك بما فعل الدهر وأبناء الدهر مع غيرك من الرجال.

فما أنت أول عظيم غمطه الدهر حقه ، ولا أول كبير جحد الناس ما يستحقه من إجلال ، ومازال الدهر ، ومازال الناس منذ أن ابتلوا بداء الحسد كذلك وسوف يظلون كذلك ، وهذا ما يجلب لك شيئاً من هدوء البال.

لقد أضفت إلى كبريائك وغرورك وظلم نفسك ظلم الناس والزمان ، ولم تدر أنك بذلك حَمَّلْتَ نفسك وأثقلت كاهلك أثقالاً مع أثقال.

ولذلك فأنا لا أقول : رفقاً بالأرض ولا رفقاً بالناس ولكن رفقاً بنفسك وعسى أن يجدي بك المقال !!!

إذا لم تستح فاصنع ما شئت

إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

إذا لم تستح من الله تعالى ولم تراقبه ولم تؤمن به فاصنع ما شئت من المحظورات التي نهاك الله عنها وفيها الضير كل الضير عليك وعلى دنياك وآخرتك ولكنك لا تستحي فاصنع ما شئت.

وإذا لم تستح من بني آدم فاصنع ما شئت.

فإذا لم تستح من بني آدم ولم تخش الخروج من دائرة العقل عند بني آدم ولم تستح من أن تكون حيواناً من الحيوانات بأخلاقك وأعمالك وأفعالك وما تميز الإنسان عن الحيوان إلا بالعقل والحياء وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.

إذا لم تستح أن يقال : لئيم أو حيوان أو دنيء أو سافل فافعل ما شئت ولكن حذار من أن تدعي مرة ثانية بأنك إنسان لك ما للإنسان وعليك ما على غيرك من بني الإنسان لأنك قد أهدرت إنسانيتك ووأدت آدميتك حينما أهدرت العقل ووأدت الحياء الذي أمر به العقل.

كل شيء له ثمن وثمن عدم الحياء من الله تعالى ومن الناس هو ضياع العقل والحياء.

وإذا أهدرت عقلك وحياءك أصبحت حيواناً من الحيوانات بل اقل قيمة من الحيوان وانقص قدراً من الحيوان لأن الحيوان فيه المنفعة لبني الإنسان أما أنت فليس فيك نفع لإنسان ولا لحيوان . ولذلك فأنت لست بحيوان ولا إنسان ، أي عجزت عن أن تصل إلى رتبة الإنسان ولا الحيوان.

لأن لوصولك إلى رتبة الإنسان شروطاً وواجبات عجزت عن الالتزام بها لذلك آثرت أو لم تبال أن تنزل إلى رتبة الحيوان.

أما الحيوان ففيه الخير كل الخير لبني الإنسان ذلك الحيوان بن الحيوان المتصل نسبه بالحيوان.

أما أنت الحيوان ابن الإنسان المتصل نسبه بالإنسان فليس فيك من الحيوان نفعه ولا خيره لبني الإنسان.

ولكن فيك من الحيوان صفاته التي جعلته أحط من الإنسان ، فلك بعد ذلك إذا لم تستح أن تصنع ما تشاء ولكن ليس لك أن تدعي أنك إنسان لك ما للإنسان وعليك ما على الإنسان.

مراعاة الشعور

الشعور كالعواطف الإنسانية تكثر عند بعض الأشخاص وتقل عند بعضهم ، فبينما تجد رجلاً مرهف الشعور شديد الإحساس يتأثر لكلمة ويستجيب لطرفة عين ولو كانت من وراء حجاب ، تجد شخصاً كثيف الشعور بليد الإحساس لا يحس بالشيء ما لم تفسره له تفسيراً وتوضحه إيضاحاً لو تلي على حمار لحل ألغاز الكلام.

ذلك الشخص لو كان الناس كلهم على شاكلته لما وجدت الاستعارات ولا المجازات في اللغة لأنه ليس من أهلها ولا يستطيع هضمها ولا فهمها.

ولعل كثرة الاستعارات والمجازات في اللغة العربية دليل على رقة شعور واضعيها ورهافة حسهم إذ أن العربي يعرف من قولك فلان جبان الكلب أن ذلك الرجل كريم إلى ابعد غاية في الكرم لأن كلبه جبان لا يجسر على أن ينبح الضيوف والوافدين.

ولو قلت لبعض الأشخاص الكثيفي الشعور فلان جبان الكلب فإنه لا بد وأن يقول : نعم ، إن كلبه لجبان ثم لا بد أن يفيض في طبيعة الكلاب جنسها وشجاعتها وقد يحكي لك ما شاهده من جبن الكلاب وشجاعتها وأن بعضها يلاقي الذئاب وبعضها يهرب من القطط ولا يخطر بباله المعنى المقصود من تلك الكلمة ولو حاول فهمه ولبث في محاولته مائة عام ولو كان من أهل البدو ، وممن تربوا بين الكلب والوتد.

ومالنا نذهب بعيداً ونحن نرى أننا حينما نذهب للنزهة أو لغيرها خارج المدينة وعندما يكون النسيم عليلاً بليلاً نجد أن بعض الناس عندما يروقنا هبوب النسيم وتعجبنا رقته يعرف ذلك منا بمجرد ما نقول

(ما شاء الله) مثلاً أو يا حلاوة أو عبارة أخرى تقارب ذلك لا تدل إلا على الاستحسان فقط على حين أن البعض الآخر من الناس لا يفهم حتى تقول له إنني أحس بأن النسيم رقيق لوقعه في نفسي صدى لذيذ عميق ثم قد لا يفهم من ذلك معنى ولو فهمته إلا أن يتهمك بأنك رجل خيالي لا تعرف من الواقع شيئاً ، خفيف العقل يَطَّبَيك كل شيء وتضحك من غير عجب.

ونحن اشد حاجة إلى فهم تلك العاطفة الإنسانية ، عاطفة الشعور عندما ندخل في معاملة الناس ونعاشر طبقات منهم كثيرة ، إذ أن الكلمة الواحدة التي لا تزيد حرفاً ولا تنقص حرفاً لها من الوقع عند شخص ابعد مما لها من الوقع عند شخص آخر أكثر من بعد ما بين المشرق والمغرب.

فقد تؤثر كلمة لدى شخص أكثر مما تؤثر مئات الكلمات من نوعها عند شخص آخر وذلك لأن الشعور عند الرجلين متفاوت فلذلك يتفاوت تأثيرها تبعاً لذلك.

والرجل الذي يفهم عاطفة الشعور أتم الفهم ويقدرها حق التقدير هو الذي يكسب صداقة الكثيرين من الناس ، أما ذلك الرجل الذي لم يرزق من المعلومات عن الشعور حرفاً ولا معنى فذلك الذي لن يصبح بدون صديق فحسب ولكن سوف يُرمى من الجميع بقلة الأدب وثقل الطبع ، على أن من الخير لمثل ذلك الشخص لو كان يفهم الخير لنفسه أن يتوخى بمجالسته ومعاملته الأشخاص القليلي الشعور الكثيفي الإحساس.

والشعور الزائد يكون نعمة ويكون نقمة أو هو له وجهان : وجه حسن مفيد ووجه غير مفيد ، فهو يكسب صاحبه المنزلة الرفيعة ويفيده

إذا ما استعمله فيما يفيد ولا سيما في فهم المعلومات وفي استخراج المجهولات قد يضره ولا ينفعه لأنه يزيد من اثر وقع المصائب عليه.

قبل . . . وبعد . . .

وقبل ذلك لم تكن تعرفني ولم أخطر لك على بال.

أما الآن فأنت تخطب ودي وتسعى على ما يسر خاطري.

وترى أنني في نفسك شيء عظيم.

ولا اشك في صدق قولك إنك متأسف على ما مضى من دهرك قبل أن أكون في نفسك كذلك.

ولكن أين كنت يا صاحبي كل هذا الزمان ؟

الم تكن تجمعني وإياك المناسبات فتنظر إلي كما تنظر إلى غيري من الناس ، فما الذي جعلك تغير منظارك الذي تنظر إليَّ من خلاله بدون أن يكون مني ما يدعوك إلى ذلك ؟

قل لي ، وتحر الصدق فيما تقول.

إنك لا بد قائل حينئذ : إنك لم تكن تعرفني قبل ذلك ولم أخطر لك ببال ، لأنك لم تكن تظن انك يمكن أن تستفيد مني في بعض أمورك ، وتستعين بي في شأن من شؤونك.

أما الآن ، وأما بعد أن عرفت ذلك فإنك تخطب ودي ، وتسعى على ما يسر خاطري ، زاعماً انك تكرمني بذلك وأنه – وإن لم تصرح بذلك – يجب أن أعرف لك ذلك وتؤمل في نفسك ألا أنسى ذلك ، بل يكاد يصل بك البله وفساد التصور إلى أن تظن أنني سوف أضاعف لك ما تزعم انه أيادٍ أسديتها إلي ومعروف صنعته عندي ظاناً أنني ممن ينطلي عليه الخداع.

نعم ، وأقول : الخداع وإن كان خداعاً من نفسك لنفسك وما في نيتك أن تخادعني به أو أنني من تلتبس لديه الحقائق.

لا ، يا صاحبي ، وألف لا .

أنت لم تكرمني بذلك ولم تصنع إلي معروفاً ولم تخطب ودي وإنما أكرمت نفسك ، وصنعت معروفاً إلى نفسك وخطبت ود أغراضك.

أنت لم تكرمني بل أكرمت نفسك ، لأنك فعلت ما رأيت انه في صالح نفسك في أغراض نفسك.

وأنت لم تشعر بوجودي وإنما شعرت بوجود مصالحك التي تكمل وجودك !

ولذا فأنت لم تشعر بوجودي وإنما شعرت بوجود نفسك.

ولذا – أيضاً – فأنت تصنع المعروف إلى نفسك وتتملق حين تتملقني نفسَك.

وأولى بك بعد ذلك أن تطلب كفاء معروفك من نفسك وأن تقول انك صنعة معروفك إلى نفسك ولم تصنعه إلى شخص مثلي غيرك.

أنا لست كفؤاً لأكرمك حينما كنت لا تظن بي نفعك ، أما الآن فقد أصبحتُ كفؤاً لأن ظنك كان خاطئاً أفلا أخاف من أن تغير رأيك حينما يتضح لك خطأ رأيك الأخير ؟

بلى ، إنني أتيقن ذلك ، أتيقن أنك عندما أُصبح لا فائدة مني في تحقيق أغراضك ولا أمل لك في مساعدتك فإنك سوف ترجع إلى سابق عهدك وإلى ماضي سيرتك ، ترجع إلى أن تصبح لا تعرف لي حقاً ولا تعترف لي بقيمة.

ولن تكتفي بذلك حتى ترجع باللوم إلى نفسك وبالتسفيه لرأيك وبالنياحة على معروفك ذلك المعروف الذي ضاع عند غير مستحق وذهب في غير مذهب مثمر.

أما كان أولى بك والأمر كذلك أن تقتصد في مدحك لي وتوفر من دعواك فأنا غير معترف بصدق قولك وأنت سوف تصبح كذلك ؟

قال وقلت

قال : انتهيت الآن فلا اقدر نفسي بشيء ولا ازن نفسي بميزان ولا أقول أنني كبير أو صغير أنني أكبر قدراً من رفاقي أو أصغر منهم أو من أوسطهم.

قلت : لم ذاك ؟

قال : لأن الناس لا يوافقونني على ما أقول ولا يؤمنون بما احكم به.

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : أنني أضع نفسي في مرتبة كبيرة لا غروراً مني وادعاءً لما ليس صحيحاً ، ولكن بناءً على أدلة وبراهين ثابتة عندي لا تقبل الجدل أو يناء على شهادة أناس عرفوا بصدق القول وعدم المؤاربة ، وبينما أنا كذلك مسرور من نفسي معجب بها حامد لله في سري على ذلك متذكراً لكما طرأ عليَّ من شك في ذلك أنني لم أبن حكمي على نفسي إلا على أسس ثابتة وبراهين قاطعة.

وبينما أنا كذلك وإذا بأناس من الناس يتكلمون في مجلس من المجالس أو يجولون في أحاديثهم بين الرفاق في نادٍ من النوادي وإذا بذكري يمر فيما يمر من حديث فإذا بهم أو ببعضهم يخلعون علي خلعة تخالف ما خلعت على نفسي ، خلعة غير قشيبة الصفحة بل ملطخة بما لا يسرني.

وإذا بهم يرسمون لشخصيتي صورة تباين ما رسمته لها بناءً على تلك البراهين القاطعة تمام المباينة ، وإذا بهم ينزلونني من ذلك المحل

الرفيع إلى مكان وضيع وإذا بذلك الإطار الجميل قد طار هباءً ليحل محله إطار غير جميل.

ويبلغني ذلك وأنا لا أشك في أن لأولئك القوم من صدق النظر ما يكفي لكي يجعلني اشك في نفسي واشك فيما كنت اعتقده بل واتيقنه فيها قبل ذلك ولكنه لا يكفي لكي أنزل بنفسي وبمحلها من نفسي إن صح هذا التعبير إلى تلك المكانة الغير رفيعة التي وضعني فيها أولئك الناس.

وتجري بيني وبين بعض زملائي مناقشة في شيء من الأشياء وما أكثر الأشياء التي تجري فيها بيني وبينهم المناقشات كما تجري بين الزملاء غيري وغيرهم المناقشات ، وأصمم على أن وجهة نظري في تلك المناقشة هي الصحيحة ، إلا أنه مع الأسف تبين آخر الأمر ليس لأصحابي فحسب ولكن لي أنا أيضاً أن غير الصحيحة هي وجهة نظري وان الصواب مع رفاقي الآخرين.

وهنا يجد الرفاق فرصة لكي يكرروا لي قولهم إنني مغرور وإنني أضع نفسي في موضع لا يصل إليه قدرها فيقضي ذلك على البقية الباقية في نفسي من تقدير لنفسي وإجلال لها فأجلس حزيناً على ذلك مغتماً وأكاد أهدي كل ما املك لمن يصادفني في تلك الساعة فيبدؤني بالسلام أو بكثير السؤال عن الحال لأنني في نظري لست كفؤاً لذلك وإنما ذلك تكرم من ذلك الشخص وتلطف منه يستحق عليه كل ما يستحق من عمل عملاً خالصاً لوجه الله ، أو لوجه التواضع فقط.

وعندما تدور المناقشات بيني وبين زملائي بعد ذلك وأنا على تلك الحالة فإنني أتخير بعض الزملاء لكي أنصر وجهة نظره التي توحي إليَّ

نفسي أنها هي الصواب ، أما أنا فلا أكوّن رأياً خوفاً من المناقشات التي قد تسفر عن خطأ رأيي ومن هناك إلى زيادة غمي وحزني على قيمة نفسي الضئيلة.

ثم لا أكاد استقر على ذلك الرأي حتى يحدث ما يغير الحال رأساً على عقب ويبدل الأوضاع تبديلاً لا يبقي على سابقه ولا يذر ، إذ تصل إلى سمعي أنباء تفيد بأن أولئك النفر الذين كانوا ينتقصون قدري ويضعون من مكانتي أو نفراً غيرهم قد أفرطوا في مدحي والإشادة بمواهبي وتمني أن يكون مثل فهمي وذكائي لأنفسهم التي حرمت منه ، ثم تدور بيني وبين زملائي مناقشة ينتصر فيها رأيي على أراء غيري في المناقشة فيحدث نفس ما حدث في السابق صورة ولكن عكسه روحاً.

وإذا بي أعود في تقدير نفسي إلى شخص غير ذلك الشخص السابق وإذا بأصحابي ينصاعون إلى رأيي أو يوافقون بدون انصياع فيخيل إلي أنهم كلهم ألسنة مدح وثناء يمدحون صواب رأيي ويثنون على ثاقب نظري.

ثم يمض الزمن وتتكرر هذه الأحوال مرات ومرات ويتكرر معها تقديري لنفسي ويختلف تبعاً لها مرات بعد مرات وقد عجزت الآن بعد كل ذلك أن أكون لنفسي رأياً في نفسي ، أو اثبت عل شيء بشأنها ولذلك فقد عزمت على أن لا أقدر نفسي ولا أضعها في مكان من الأمكنة لا رفيع ولا وضيع ولا أتحدث عنها في نفسي لا حديثاً يسر ولا حديثاً يسوء لأنني وجدت أنني لن البث طويلاً حتى أغير رأيي في هذا الاعتقاد سواء أكان يسرني أم كان غير ذلك.

قلت له : وهذا ما اعتزمت الآن أن تفعله ؟

قال : نعم .

قلت : إذاً أنت بمقتضى كلامك هذا تعتقد في نفسك أحياناً العظمة أو ما يشبه العظمة والاحترامَ وأحياناً تعتقد فيها عكس ذلك : الضعة أو ما يشبه الضعة والاحتقار ؟

قال : نعم هكذا أعتقد .

قلت : أننا قد درسنا في الكتب وسمعنا الأساتذة والمرشدين أنه يجب على الإنسان أن يزن نفسه بميزانه الخاص ، وألا ينتظر الوزن الصحيح لنفسه من موازين غيره من الناس وليكن ذلك الميزان عادلاً وليكن وضعه نفسه وقدر نفسه مبنياً على أساس صحيح من خبرته بنفسه وإمكاناتها ومقدرتها وهو على ذلك أقدر من غيره واعدل حكماً وأصوب رأياً بحكم معرفته الصحيحة لنفسه التي لا تتهيأ لغيره لأنه يعرف من نفسه ما لا يعرف منها غيره ، ولأنه يعرف ظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها بخلاف غيره ويعرف نواحي التفوق فيها كما يعرف مواطن الضعف منها.

إن نفسك يا صاحبي يجب أن تزنها بميزانك الخاص ويجب أن تفهم تمام الفهم في كل آن أنه لا يوجد لنفسك اخلص من نفسك وأنه لا يوجد شخص يحب لنفسك أن ترقى في معارج الكمال النسبي مثلك أنت ، هكذا قال لنا الأساتذة وهكذا قالت الكتب وهكذا قال الشعراء.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه.

وقالوا في ذلك إذ أنت لم تكرم نفسك فلا تنتظر من غيرك أن يكرمها ثم قالوا إن إكرامك لنفسك ليس أن تنيلها من شهواتها ما

عجزت غيرها عن نيله ، ولا أن ترخي لها العنان في الجري وراء عواطفها التي تقودها إلا ما لا تحمد عقباه في دنياك وأخرتك.

قال : لقد سمعت هكذا وأكثر من هذا ولكنني عجزت عن الانتفاع به ، أنني أضع نفسي في مكان ولكن أنى لي أن أثبتها في ذلك المكان ، إن علتي يا صاحبي ليست في عدم وضع نفسي ولكن في عدم الإيمان بوضع نفسي في موضعها الذي يجب أن تحتله من شعوري.

قلت : وقد جربت أن تحلها المحل الرفيع ثم جربت أن تحلها المحل الوضيع ؟

قال : هو ذاك .

قلت : أفلا يصح أن تقول أن علتك هي القلق على قدر نفسك ، القلق في تقديرها والغلو في احتقارها ، إنما علتك هي الإفراط والتفريط.

قال : نعم هو ذاك أو قريب من ذاك.

قلت : أفلا تجرب طريقة (الترمومتر) لتفرض لمقدار نفسك في نفسك (ترمومترا) ولتفرض أن أقصى درجة فيه هي المائة وأنزل درجة فيه هو الصفر وما بين ذلك هي درجة ٥٠٪ الخمسين من المائة.

قال : هيا فلتكمل فإنها فكرة طريفة.

قلت : ولعلها أن تكون مفيدة ثم بعد ذلك عليك أن تلاحظ أن تجاوز درجة الخمسين وهو المتوسط شيء محرم عليك وشيء لا يمكن أن تفعله في وقت السلم أو وقت هدوء العاصفة في الوقت الذي لا تجد نفسك من نفسك محارباً في تجاوزه أو القصور عنه وهو رقم يجب أن لا تبعد عنه كثيراً في غير ذلك.

ففي نوبات الرضا أو التراضي عن نفسك ذلك الرضا أو التراضي الذي قلت عنه إنه مبني على براهين صادقة وشهادات أناس عرفوا بصدق النظر وعدالة المنطق أو في حالات الغضب أولاً زن أداء الذي تقول عنه كذلك إنه مبني على أدلة من أناس صادقين وبراهين لا يتطرق الشك إليها لتقل لنفسك ذلك إنه لا يجوز الابتعاد عنه كثيراً أما ولتعتبر أنه الوضع الطبيعي لنفسك.

ولتعرف أن رقم المائة هو الغرور وأن رقم الصفر هو غمط النفس حقها بازدرائها.

ولا تسمح لنفسك أن يرفعك كلام بعض الناس عن الوضع الطبيعي أو أن ينزل بك قول آخرين عنه؟

وإذا ما نازعتك نفسك الصعود بالرقم عن الخمسين فقل لها إنه هو الوسط بين المائة والصفر و (خير الأمور الوسط) !

فلتمرحوا أيها الأطفال

فلتمرحوا أيها الأطفال ، ولتنعموا بالعيش اللذيذ ، ولتستمتعوا بهدوء البال لأن بالكم خالٍ إلا من مقتضيات السرور وإن أفكاركم الصغيرة غير مشغولة إلا بما يرفه عن نفوسكم البريئة ، وإن عقولكم الطاهرة غير مشتغلة إلا بما يزيدها فرحاً وحبوراً.

إن قلوبكم نقية ناصعة البياض لأن سواد الدنيا لم يرن على صفحاتها وإن نهار السرور والحبور لم يغرب عن أرضها.

إمرحوا ، امرحوا ، واستمتعوا بالحياة قبل أن لا تمرحوا وقبل أن لا تفرحوا بالحياة ، امرحوا ، امرحوا ، واثأروا من الدنيا قبل أن تثأر منكم.

امرحوا ، امرحوا قبل أن يصل بكم ركب الزمن إلى أرض الحقيقة ، حقيقة الدنيا المرة ، تلك الحقيقة التي سوف تكدر من حياتكم ما صفا، وتملأ من قلوبكم الحبيبة ما خلا إلا من الحبور والسرور والطهر والنقاء.

إمرحوا ، امرحوا قبل أن تبخر شمس الأيام ماء عيشكم الصافي وتطلع على ظل حياتكم الظليل بهاجرتها اللافحة.

إمرحوا ، امرحوا وتيهوا واطربوا فأنتم تملكون أعز ما في الدنيا وتحملون بين جوانحكم ما يفقده الآخرون.

تملكون الطهر ونقاء الضمير وتحملون بين جوانحكم ما ينقص الدنيا وينقص صلاح الدنيا ، وتملكون سلامة القصد وصدق الكلمة.

إنكم تسيرون في حياتكم إلى مقاصدكم بكل صراحة ونزاهة.

إنكم تأتون البيوت من أبوابها ، إنكم لا تلفون ولا تدورون ولا تراوغون ولا تغدرون ولا تمكرون.

إمرحوا ، امرحوا وتيهوا واعجبوا فما ينقصكم غير شيء واحد ، ينقصكم أنكم لا تستطيعون أن توقفوا ركب الزمن حتى لا يصل بكم إلى أرض الحقيقة المرة ، وهذا شيء لا ينغص صفو عيشكم الحلو اللذيذ ولا يقتحم السياج المنيع الذي ضربته العناية الإلهية بينكم وبين الشقاء والنفاق والرياء.

إمرحوا ، امرحوا وغردوا كما تغرد البلابل وليفح منكم أريج الحياة كما يتضوع من الزهرة قبل أن يصاب بلبل الطفولة بالبكم ، وقبل أن تصاب زهرة عيشكم الرائق بالذبول.

إمرحوا وانشروا في الدنيا المرح ، وعلموا الكبار الثقلاء المرح فما بقي في الدنيا من يمرح وهو مخلص للمرح إلا أنتم.

امرحوا واثأروا من الدنيا لكباركم ، إثأروا من الدنيا لإبآئكم الذين لم تدعهم الدنيا يمرحون ، إثأروا لإبآئكم من الدنيا فأنتم أولى من بر وأحق من ثأر من الدنيا لأبناء جنسه.

وأنتم أيها الكبار ، أيها الأباء والأمهات ، بالله عليكم لا تكدروا صفوا حياتهم ولا تتغصوا عيشهم ولا تدخلوهم في أمور ليست لهم.

لا تصنعوا المشاكلات وتدنسوا ثيابكم بالدنيا ثم تبغوهم لكم مشاركين ومثلكم متدنسين.

بالله عليكم ، لا تكدروا صفو حياتهم فما للحياة التعسة خلقت قلوبهم ولا مع معاناة العيش الكدر جبلت نفوسهم.

لا تشركوهم في آلامكم ومخاوفكم فإنكم إن فعلتم آثمون ولسنن الطبيعة البشرية متنكبون.

وأنتم يا ذوي القلوب الكسيرة وأرباب النفوس الحزينة ويا من أناخ عليهم الزمان بكلكله ويا من كانت الأحوال على غير ما يريدون ، وجرت الأقدار بما لا يودون ، تعلموا من هؤلاء الأطفال المرح ، وتعلموا من هؤلاء الأطهار السرور ، تعلموا من هؤلاء الأطفال المرح ، تعلموا منهم المرح لأنهم يمرحون.

رغم ما في الدنيا من ترح يمرحون ، والدنيا من حولهم مترعة بالترح يمرحون وأنتم تحزنون ، ويفرحون وأنتم تترحون ، لأنهم لا يشعرون بما في الدنيا من أتراح وأن حياتهم البريئة تحيل أتراحكم إلى أفراح لهم حاولوا أن تفرحوا كما يفرحون.

حاولوا ، وحاولوا أن تثبتوا على المحاولة ، فإن لم تثبتوا فلا تحاولوا أن تشركوهم بآلامكم.

لا تجنوا عليهم فتجمعوا بين الجنايتين أنتم تحيلون الدنيا جحيماً بما تقترف أيديكم من آثام وما تكسبه نفوسكم من خطايا فلا تشركوا أولئك الأبرياء الأطهار فيما اقترفتم من أوزار.

أنا أجفل منك

كان لي صديق عامي رقيق الإحساس شديد التأثير ، عاطفي بمعنى الكلمة.

له فلسفة خاصة في أحوال الناس وشخصياتهم وميولهم وعاداتهم ، وله كذلك فلسفة خاصة في نظرته إلى الأشياء الخارجية والمؤثرات.

عرفته منذ زمن بعيد أما هو فهو يزعم أنه صديق منذ سنين صديق لي من بعيد يقول لي : إنني قبل أن أعرفك أحبك وأجلك ولو لم أحادثك أبداً. الله يسلمك ((القلوب شواهد)) والناس ما هم بواحد ، أحد تحبه لو أنت ما تعرفه ولا يعرفك ، وأحد تبغضه لو أنت ما تعرفه ولا يعرفك ((النفوس مشاهي)).

وكنت أنا اركن إليه استطلاعاً لفلسفته الغير متكلفة ونظرته الخاصة إلى الأشياء التي كثيراً ما تختلف عن نظرة الناس إليها.

وزادت الصداقة بعد ذلك توطداً بسبب إسراعه من جهته في قضاء أية حاجة تكون لي مع خفض الجناح والموافقة على آرائه لو كان ذلك لارضاء عنها مني.

ولكنه مع كثرة المجالسة واستجابتي لدعواته في بعض الأحيان وإن كنت أردها عليه بمثلها ثقل عليَّ قليلاً وملت صداقته بعض الشيء فصرت احب أن لا أجتمع به مع عدم إظهاري له شيئاً من ذلك.

وهكذا استمرت الحال زهاء أسبوع يلقاني فلا أظهر له غير ما كان قد أعتاد من البشر والسرور مع ما في نفسي من التبرم به والملال من صحبته على هذه الصورة.

واليوم لقيني ومعنا جماعة من الأصدقاء في دكان بالسوق وكان أول ما بدر منه أن قال بتأثر ظاهر ، وكلمات فيها شيء من الأسى والانكسار (أنا اجفل منك هالسبوع ما درى وراه يا محمد!).

فقلت له لا شيء ، هل عملت في غيبتي شيئاً لا يرضيني كأن تكلمت في حقي فأنت بذلك غير مطمئن إلي تظن أنني قد علمت بذلك ؟ وإلا فلماذا تقول هذا ؟

فأجاب قائلاً : لا ، لا ، قلبي يقول لي إنك لا تريدني أن اجلس عندك ، عقلي يعلمني بذلك لماذا ؟ هداك الله !.

وهكذا فقد أكتشف هذا الصديق العامي ما في خاطري من غير أن أفضي به إلى أي مخلوق كائناً من كان مع أن مقابلتي له لم تكن كثيرة في هذه المدة التي يشير إليها !.

لا تكن ليناً !

نعم لا تكن ليناً فتعصر.

ما أحسنه من كلام وما أعمقها من حكمة وما أصدقه من تعبير صدر عن عقل كبير وحكمة وليدة التجارب لا وليدة إلا لسنه والحافل.

لا تكن ليناً تتبسط للناس اكثر مما ينبغي ولا تصغر نفسك لديهم اكثر مما ينبغي فيعصروك ليخرجوا منك الاحترام الذي لا بد منه في هذا العالم الذي يقيس أقدار الرجال بالاحترام وليخرجوا منك الترفع الذي هو مصدر هيبتك ومنبع التوقير عند ضعاف العقول الذين لا بد ليكونوا عندك كلاباً من أن تكون أنت ذئباً ويتركوك بعد ذلك نفايةً ، مقرك المزابل ، وإن كان فيهم رقيق القلب فموطئ النعال ، وخلف الباب.

لا تكن ليناً للناس تتساهل معهم في طلب حق وتتوانى في تطلاب واجب لك ، فيغمطوك حقك وينكرون لك واجبك.

لا تكن ليناً تخفض لهم جناحك في حديثك وتنزل من برجك العاجي إلى هاويتهم السحيقة محاولاً بذلك إيناسهم ، وإدخال السرور على قلوبهم غير آبهٍ برفع الكلفة بينهم وبينك فيعصرونك مدعين انك سطحي النظرة عن الفؤاد ضعيف التفكير صبياني النزعة قريب النظر.

لا تكن ليناً للناس تمحضهم نصحك بدون أن يستنصحونك ، وتدلهم على الطريق الواضح بدون أن يستوضحوك وتدلي عندهم برأيك بدون أن يستشيروك فيعصروك ، راميتك بالتطفل والتسرع والدخول فيما لا يعني من أمور غيرك.

وأخيراً لا تكن ليناً فتعصر ، يا لها من حكمة صادقة ومع ذلك فلا بد لها لكي لا تكون مثل (ويل للمصلين) وبدون (الذين هم عن صلاتهم ساهون) من الحكمة المتممة لها والتي تضع حداً لجموح الخيال في تصورها هي ((ولا تكن يابساً فتكسر)).

تلك الجملة (لا تكن ليناً فتعصر)) إنما استخرجتها من أعماق الذكريات أو ما هاجها من مرقدها في زوايا النسيان من ذاكرتي غير المتذكرة ، هي ما حدث لي مع (ع) كنت أتواضع لضعفه والين جانباً له مع أنه ليس فيه ما يوجب اللين له والتواضع إليه ومع ذلك فكان يعد تواضعي له وليني معه ضعفاً مني وصغاراً بنفسي ومهانةً قد خلطت بطينتي.

ولو أنني لم أتواضع ولم ألن في غير محل التواضع واللين وأنني أخذت بلا تكن ليناً فتعصر لما كان من ذلك شيء ربما يزرع في قلبي الفظاظة وفي نفسي الكبرياء وفي معاملتي للأقزام أمثاله عدم خفض الجناح لهم ، ولكن ينبغي أن أظل متذكراً (لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر).

ظلم الإنسان لأخيه

دخل علينا في المجلس رجل أشيب ، بل مسن ، يؤهله عمره كما قال لنا لأن يكون هرماً ، لكنه لم يهرم فعمره فيما يقول ، وفيما صدقنا به لأنه ذكره مربوطاً بحوادث تاريخية يبلغ الثمانين ، ومع ذلك !.

ومع ذلك دخل ودخل خلفه رجلان أسودان ، أنه أسمر وهما أسودان ، وتقاطيعه لا تشبه تقاطيعهما ، ولذلك فليس هناك ما يمكن معه أن يكونا قريبين له ، فيا هل يا ترى من يكونان منه؟

هذا ما دار في نفسي من أسئلة .

جلس هو حيث يجلس الناس ، أما هما فقد جلسا بعيداً عنه في مجلس الناس ، حتى لكأنهما يخجلان من أن يجلسا ، كما يجلس غيرهما من عباد الله.

وتفرست فيهما ، فإذا بأحدهما شيخ يكاد يقارب الثمانين احدب الظهر مغبر اللون ، متجعد اليدين والقدمين ، ينضح وجهه ببؤس السنين ، وشقاء الدهر ، حتى ليجد الشاعر في وجهه قصائد ، قصائد من الألم وحسرات لو جمعت لكانت أسفاراً يرجع إليها دارسوا الأحزان من صفحات الوجوه.

أما الآخر فهو فتى يقرب عمره من الثلاثين منتفخ الأعضاء ، ولكن بدون إشراق ، حتى لتبدو عضلاته أشبه بالأورام تلمح في وجهه البؤس ، ولكن بدون مبالاة منه كأن صاحبه كان اشد منه حساسية بالألم واقل احتمالا منه له.

كنت أتأملهما تارة وأتأمل الرجل الذي جاء بهما تارة أخرى ، فما انتبهت حتى تنحنح وهو يشير إلى الرجلين الأسودين الذين وصفت موجهاً كلامه إلى الحاضرين.

وقال : هذا عبدان للبيع جئت أعرضهما عليكم أنهما عبدان أنصح بشرائهما لأنهما يصليان ويخافان الله ، وقد نشآ عند قوم صالحين ، أما أحدهما فقد نشأ عند البدو في الصحراء وهو يحسن رعي الإبل ، وأما الأخر فقد نشا في نجد في وادي الدواسر.

وارتعت لكلماته تلك ، فلم يحدث أن شاهدت قبل ذلك آدمياً يعرض للبيع وهو يسمع قبل هذه المرة ، وكدت لا أصدق سمعي لولا أنه ليس هناك ما يدعوني إلى أن لا أصدقه.

رجعت إليهما لأرى ماذا يعملان ، وهما يسام عليهما كما يسام على الدابتين فلم أر في وجهيهما غير ما رأيته سابقاً ولم أرهما تأثرا لذلك الكلام وكأنه لم يطرق أسماعهما ، أو كان المعني بذلك غيرهما.

طاف بخاطري سؤال بعد ذلك سألت عنه صاحبها الشيخ قلت له : ألا تخاف أن يهربا منك وهما أجلد منك وأقوى عند المناجزة ؟.

فأجاب قائلاً : كلا إنهما يخافان الله فقلت في نفسي ولكنك أنت لم تخف الله فيهما حينما بعتهما كما تباع الدواب.

ولكن لماذا لم يفكرا في ذلك.

لماذا لم يفكرا في الهرب وهما يقدران عليه ؟

لا شك أن ذلك أمر سهل عليهما يسير ومع ذلك لم يجرياه.

ولكن لعله لم يخطر ببالهما ذلك ، وإذا كان لم يخطر ببالهما ذلك ، ولم يحاولا أن يتخلصا مما هما فيه فإنه لا غرابة في أنهما لم يستنكرا السوم عليهما أو بيعهما في المزاد كما تباع الدواب والمتاع.

قمنا للغداء ، فأكلا معنا أكلاً ذريعاً ، ولعل ذلك يوحي بأنهما كانا يجوعان وهكذا ((حشف وسؤ كيلة)) : عبودية وجوع !!!.

حقاً ، إنني لن أنسى نظراتهما الحائرة ولا سيما ذلك الشيخ الهرم الذي نشأ في الرِّقِّ ، وشب على العبودية ، ولم يدعه الوحوش حتى بعد أن جاوز السبعين بل يريدون أن يبيعوه وهو حطام من الرق بين الآدمية والحيوانية.

أيهما أبوه ؟

أبداً لا أنسى تلك النظرات الحائرة العاتبة التي كانت تنبعث من عيني المراهق ((عبد الحميد)).

كان يوجه تلك النظرات العاتبة إلى جميع الجهات الست فكأنه بذلك يعتب على الكون جميعه وعلى من فيه.

لماذا يظل دون غيره من سكان بلده الجميع يتبرؤون منه ، كل يقول إنه ليس أباه وأن عبد الحميد ليس ولده ؟.

إذاً من هو أبوه ؟ . . وهو ابن مَنْ ؟.

وماذا جنى هو حتى يصير هكذا ضائعاً تائهاً في الدنيا كما تتيه قافلة الإنسانية في بعض الدروب.

ولكن لماذا أحضروه إلى قاعة المحكمة ؟.

لو علمت قبل أن يحضر بأنه سوف يحضر لما حضر ، لما تركته يشهد الخصام حوله ، والكل ينفض ثوبه منه ، ويحاول أن يبعده عنه.

لماذا لم يرحموه فيجعلوا الخصام حوله بعيداً عنه ، حتى إذا ما ظهرت النتيجة : نتيجة الحكم في القضية وإن لم تكن الحقيقة قطعاً أخبروه وهو وشأنه والدنيا بعد ذلك.

إن عبد الحميد هذا كان نتيجة شهوة طائشة أفتعلها أبوه وبقي هو الضحية هو الذي يقول :

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

ولكن ما أكثر ما يجني الآباء على الأبناء.

لقد انتابتني شتى المشاعر والانفعالات وأنا أنظر إلى عيني ذلك الفتى الصغير ، إلى عينيه الصغيرتين الحائرتين يجيلهما في أركان المحكمة وهو يُسأل من أبوك ؟ فيجيب بأنه فلان.

أما ملخص قضيته فهو كما يأتي :

توفي حسين منذ سبعة عشر عاماً ، وكان له ابنان وبنتان وجارية مملوكة ، وعندما مات كانت الجارية المذكورة قد وضعت قبل موته بشهرين طفلاً هو ((عبد الحميد)) وماتت الجارية بعد بمدة قليلة قبل أن تقسم التركة ، وشب عبد الحميد الصغير هذا مع إخوانه ، ولكن الأخوة عندما كبروا قالوا : إن هذا الولد هو ابن الجارية من غير أبينا ، وهو ليس أخاً لنا وإن هذه الجارية قد أتت بواحد من الزنا قبله وجاءوا بشهود شهدوا بطبق ما يقولون.

إذا من هو أبوه ؟

لا بد أن يجيبوا على هذا السؤال ، إنهم يقولون إنه رجل اسمه مطابق لاسم أبينا ، اسمه حسين كان سَقّاء البيت وكان معروفاً بصلته بالجارية وجاءوا ببراهين أخرى.

إذن فليحضر ذلك الرجل الذي يدعي النافون للنسب أنه أبوه ، ولكن كيف يمكن إحضاره ؟.. إنه كذلك قد مات ولحق بالجميع ، مات الذي يدعي الابن أنه ابنه ، أو على الأصح يدعي وكيله الذي تبرع بالدفاع عنه فإنه لا يعرف الدفاع ، ومات كذلك الأب الغير شرعي الذي يدعي الآخرون أنه أبوه من الزنا ، وبقي شاهد آخر يشهد أنه سمع حسيناً الذي يدعي الصبي أنه أبوه الشرعي يقول أن الجارية جاءت مني بولد اسمه عبد الحميد.

ولكن صاحبنا هذا يظهر أنه مبطل لأنه شهد مرة أنه رأى عبد الحميد يمشي فسأل والده عنه فقال أنه إبني رزقته من الجارية ، والحال أن الأب المشار إليه قد مات وعبد الحميد لم يتجاوز عمره الشهرين.

ويعلل خصومه الذين ينفون عن عبد الحميد أنه ابن شرعي ويعللون شهادتهم الباطلة فيقولون إنه منهم بأن عبد الحميد أيضاً ابنه لأن الجارية أنها قالت أنه من السقاء اليماني وصاحبنا وحسين كلاهما سقاء ويمان ، ويتردد على البيت الذي ولد فيه عبد الحميد من الجارية.

إن قضيتهم جرى النظر فيها في المحكمة اليوم وقد أجلت للتأمل ولإحضار بينة كلا الطرفين.

ولشيء آخر أهم من ذلك ، هو أن إحدى البنتين قد اعترفت بأن عبد الحميد أخوها ، فهل هذا صحيح ؟ أي اعترافها ؟ لا بد من التحقق من ذلك ولذلك تأجل النظر فيها.

يا صديقي

نعم يا صديقي.

قل : يا صديقي.

قلها أنت ، ولأقلها أنا.

لتقلها ولأقلها حارة مشيعة بالإخلاص والإيمان بالصداقة.

لأقلها مزهواً بها ، معجباً بمعناها ، ولتقلها أنت كذلك.

لنقلها معاً ، وكفى بها كلمة خفيفة الظل ، حلوة الوقع في النفس ، لها مو سبقاها الحالمة ، ولها جرسها المحبوب الأنغام.

لنقلها وحدها وهي تغني عن مئات الكلمات وألوف الأبيات ، وعشرات العبارات.

لنقلها ولنكثر من أن نقولها.

لنقلها ما دمت في غنى عني وأنا في غنى عنك ، ما دمت لست محتاجاً إلي ، وما دمت لست محتاجاً إليك.

لنقلها قبل أن اختبر صداقتك ، وقبل أن ابلو صدقك.

لنقلها في الرخاء قبل أن لا نقولها في الشدة ، حينما نعرف أنها كلمة جوفاء ، كلمة فارغة المعنى ، كلمة يتلهى بها صغار العقول ، وطلاب العدم في محيطات الأوهام ، وفي غمرات الخيال.

نعم.

لنقلها قبل أن يتبخر سحرها ، ويتلاشى في بوتقة الحقيقة أمرها.

لنقلها، ولنستمع لموسيقاها ، ولنغالط أنفسنا ، فكل شؤون هذه الدنيا مبنية على ذلك.

هيا ، هيا ، لنقلها.

لنقلها قبل أن تنتزعها الحقيقة من أفواهنا.

لنقلها ولتأخذ أنفسنا حظها من ذلك المعنى الخيالي اللذيذ!.

قال وقلت

قال : إنني لا أمدح نفسي ، ولا اذكرها بما فعلت ، ولا أتشبع لما لم أُعْطَ ، فأقول فعلتُ ما يحمد فعله ، وأنا لم افعله ، وتركت ما يحمد تركه وأنا لم اتركه.

قلت : عن هذا هو المدح ، إنك الآن تمدح نفسك وانك تتشبع بما لم تُعْطَ ، إذ تزعم لنفسك أنك لا تمدحها وهذا هو المدح.

قال : ولا أعجب بنفسي ولا أفخر بمزاياها.

قلت : وهذا من العجب بها ، ومن الفخر بمزاياها.

قال : أو تريدني أخرس وقد خلقني الله ناطقاً ؟

قلت : لا أريد لك ذلك.

قال : أو تريدني أن أترك تقدير نفسي للآخرين يضعونها كيف شاءوا ؟

قلت : ولا هذا أُريد.

قال : فماذا تريد ؟.

قلت : أَنْ تتكلم عن نفسك أَفْعَالُك لا أَقْوَالُك ، وتُقَدر نفسك آثارك لا إِخْبَارك ، أو سمعت ما قالت الحكماء ((مدح الرجل لنفسه شين ، ومدح غيره له زين)).

ثم ينبغي أن تعلم يا صاحبي أن التواضع في بعض الأحيان هو التكبر المُقَنَّعْ !.